الفصل الثالث

العلمانية

يشتمل الفصل على:

تمهيد.

المبحث الأول:

الدين والكنيسة في الحياة الأوربية.

المبحث الثاني:

تكريس رجال الكنيسة لسلطتهم الدينية

المبحث الثالث:

الطغيان الكنسي.

المبحث الرابع:

الكنيسة الغربية أمام التحديات.

المبحث الخامس:

تسرب الفكر العلماني إلىٰ بلاد الإسلام.

المبحث السادس:

العلمانية والإسلام.

الخلاصة.

مراجع مختارة.

تمهيد

تعريف العلمانية:

جاء في دائرة المعارف البريطانية تعريف العلمانية (secularism) بأنها حركة اجتماعية تهدف إلىٰ صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلىٰ الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها، وظل الاتجاه إلىٰ الـ(secularism) يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله باعتبارها حركة مضادة للدين، ومضادة للمسيحية[1].

ولا تكاد تختلف تعريفات الغربيين للعلمانية علىٰ أنها نظام من المبادئ، والتطبيقات يرفض كل صورة من صور الإيمان الديني، والعبادة الدينية، وهي اعتقاد بأن الدين والشؤون الاكليركية (اللاهوتية والكنسية) والرهبنة لا ينبغي أن تدخل أعمال الدولة، وبالأخص في التعليم العام[2].

ولعل أوضح تعريف للعلمانية هو ذاك الذي ورد في مناقشات المجلس النيابي الفرنسي لدستور ٢٩/ ١١/ ٢٠٠٥م وقد جاء فيه: إن العلمانية هي حياد الدولة تجاه الدين، أي أن الدولة لا تلتزم بأي مُعتقد أو دين، كما أنها لا تخص أي دين باعتراف خاص، أو بعطف خاص، أو بمساعدة امتيازية، ولا تقوم في نفس الوقت بالدعوة للإيمان بأي دين.....[3].

---

(١) دائرة المعارف البريطانية نقلاً عن مذاهب فكرية معاصرة محمد قطب ص/ ٤٤٥.

(٢) لبنان الآخر، مؤتمر العلمنة واليهودية العربية ص/ ٩٨

(٣) العروبة و العلمانية جوزيف مغيزل ص/ ١٣ بيروت.

والفرق بين التعريفين أن الأول نص على أن العلمانية ترفض الإيمان الديني، وهذا يشير إلى موقف العداء لما هو ديني، بينما الثاني يضع العلمانية في موقف محايد تمامًا من الدين، ليس معه ولا ضده.

إذن فمدلول العلمانية المتفق عليه لدى أصحاب الفكر العلماني الغربي هو عزل الدين عن الدولة وحياة المجتمع، وإبقاؤه حبيسًا في ضمير الفرد لا يتعدى العلاقة بينه وبين ربه، فإن سمح له بالتعبير عن نفسه ففي الشعائر التعبدية، والمراسم المتعلقة بالأحوال الشخصية، بحيث لا يتجاوز دور العبادة أو المعاهد الدينية المتخصصة. ويذهب بعض المحققين من المفكرين إلى أن ترجمة (secularism) إلى «العلمانية» ترجمة مضللة لأنها توحي بأن لها صلة بالعلم، ولا صلة لها به، وإنما تقوم على أساس نفي الدين والقيم الدينية عن الحياة، ويرى هؤلاء أن أولى الترجمات لهذه الكلمة الأجنبية بالعربية أن تسمى «اللادينية»[1].

والجدير بالذكر أن العلمانية ليست مذهبًا محدد المعالم، واضح الأطر، لذا فقد تعددت صورها وأحوالها: فحالة تكون العلمانية إلحادًا صريحًا وحربًا على الدين (كعلمانية مصطفى كمال أتاتورك في تركيا) وأحيانًا إهمالًا للدين وعدم الالتفات إليه، أو طمس لبعض معالمه، وكثيرًا ما تتخذ علمانية الدولة ذريعة لمنع شخص ذي شارة دينية، كمنع الطالبات المسلمات من ارتداء الحجاب في فرنسا وهولندا وبعض الدول الأوربية الأخرى.

العلمانية غربية الجذور والمنشأ:

من المعلوم والثابت لدى المفكرين والباحثين أن العلمانية ولدت من رحم الديانة النصرانية التي كانت تدين بها أوروبا بدءًا من اعتناق الإمبراطورية الرومانية لها

(١) محمد قطب المصدر نفسه.

زمن الإمبراطور قستنطين عام ٣٢٥م، وهو العام الذي عقد فيه مجمع نيقية كأول مجمع مسكوني مسيحي، أعلنت علىٰ أثره المسيحية عقيدة رسمية للإمبراطورية.

وهذا يتطلب تتبع الظروف والملابسات التي مرت بها الديانة النصرانية حتىٰ وصل الأمر إلىٰ الانفصال النكد بين الدين والحياة، وصارت العلمانية خيارًا فرض نفسه علىٰ واقع الحياة الأوروبية بكل جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والأخلاقية، والعلمية، والفنية وغيرها...

ومن هنا فإن التعرف علىٰ العلمانية - كمذهب فكري - لا ينفك عن معرفة الظروف والبيئة التي أفرزتها، وهي طبيعة الدين النصراني، وعلاقته بالحياة في منظور الأوربيين.

المبحث الأول

الدين والكنيسة في الحياة الأوروبية

إن التعرف علىٰ حقيقة الدين النصراني الذي اعتنقته الإمبراطورية الرومانية، والنظام والسلوك الكنسي الذي عرفته أوربا ممثلًا للدين، يقتضي التعرف علىٰ طبيعة الديانة النصرانية، وما طرأ عليها من تغيير وتبديل هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ متابعة التطورات التاريخية والاعتقادية الهامة في علاقة الدين بواقع الحياة الأوربية، حيث ظهرت العلمانية، ومن ثمَّ انتشرت وعمت أقطار العالم.

وتتضح هذه الحقيقة من خلال الحديث عن المسائل الآتية:

١- طبيعة دعوة عيسىٰ عليه السلام.

٢- التحريف والتبديل الذي طرأ علىٰ النصرانية (عقيدة وشريعة).

٣- الإمبراطورية الرومانية والديانة المحرفة.

٤- الكنيسة تتبنىٰ الفصل بين الدين والدولة.

وسأتناول الحديث عن هذه المسائل بإيجاز يتناسب مع طبيعة هذه الدراسة بإذن الله.

المطلب الأول: طبيعة دعوة عيسى عليه السلام

بعث عيسىٰ عليه السلام إلىٰ بني إسرائيل علىٰ فترة من الرسل، بالدعوة إلىٰ توحيد الله تعالىٰ وإفراده بالألوهية والربوبية، وهي أساس دعوة الأنبياء والرسل من آدم عليه السلام إلىٰ نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ إلىٰ محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾(١).

وأما عيسىٰ عليه السلام فهو عبد الله ورسوله، وليس أكثر من أنه بشر رسولًا، أرسله الله بوحيه إلىٰ بني إسرائيل، ولم يدعي لنفسه غير هذه المرتبة العالية (العبودية) التي شرفه الله بها.

وقد حكىٰ القرآن الكريم إنكار عيسىٰ عليه السلام يوم القيامة قول الذين نسبوه للألوهية وعبدوه من دون الله.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾(٢).

وفي هذا التصوير البديع لطبيعة دعوة عيسىٰ عليه السلام نفي قاطع لما نسب إليه من طبيعة إلهية أو أنه ابن الله - تعالىٰ الله عن ذلك - وتؤكد دائرة المعارف البريطانية هذه الحقيقة بالقول: لم تصدر عنه - أي عيسىٰ عليه السلام - أي دعوىٰ تفيد أنه من عنصر إلهي،

---

(١) سورة الأنبياء: آية/ ٢٥.

(٢) سورة المائدة آية/ ١١٦ - ١١٧.

أو من عنصر أعلىٰ من العنصر الإنساني المشترك[1].

وأنزل الله تعالىٰ عليه الإنجيل متممًا لشريعة موسىٰ عليه السلام في التوراة، وكان الجديد في شريعة الإنجيل التخفيف من بعض التشريعات التي لم تنزل شرعًا دائمًا، وإنما جاءت عقوبة مؤقتة لليهود، مع اشتماله علىٰ مواعظ بليغة اقتضاها ما جبل عليه اليهود من غلظة في القلوب، وجفاف في الأرواح، وإغراق مفرط في عبودية المادة، وحرص، وتشبث بالحياة الدنيا.

إذًا فقد كانت التوراة - مضمومًا إليها تعديلات الإنجيل - شريعة يجب أن تطبق، وعقيدة يجب أن ينبثق منها منهج حياة متكامل.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾[2].

لكن الذي حدث هو أن هذه الشريعة لم يكتب لها التطبيق علىٰ المستوىٰ العام لسببين:

الأول: إنه لم يقم لها دولة تتبناها وتقيمها في الأرض، إذ من المعلوم أن عيسىٰ عليه السلام توفاه الله ورفعه إليه وهو لم يزل في مرحلة الدعوة التي تشبه حال الإسلام قبل الهجرة.

الثاني: إنه عليه السلام قد بعث إلىٰ قوم قساة القلوب، غلاظ الأكباد، وفي الوقت نفسه كانت المنطقة المبعوث فيها جزءًا من مستعمرات إمبراطورية وثنية عاتية، فكان ميلاد الدين الجديد في محيط معاد كل العداء له ولرسوله، ونتج عن ذلك اضطهاد فظيع

---

(١) عن الجفوة المفتعلة بين العلم والدين: محمد علي يوسف. نقلاً عن العلمانية: سفر الحوالي ص/ ٣٦.

(٢) سورة المائدة: آية/ ٤٦ - ٤٧.

للمؤمنين به، لقد دفع عداء اليهود لعيسىٰ عليه السلام إلىٰ أن أوغروا صدر الحاكم الروماني (بيلاطس) بقتله وصلبه، لكن الله تعالىٰ رفعه إليه، ونجاه منهم، وبعد وفاة المسيح عليه السلام اشتدت المحنة علىٰ أتباعه من قبل اليهود والرومان علىٰ السواء.

المطلب الثاني: التحريف والتبديل الذي طرأ على النصرانية

استحفظ الله تعالىٰ أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارىٰ علىٰ كتبهم، ولم يعد بحفظها، ولكن وعد بحفظ القرآن الكريم فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾[1]. لذلك نال الكتب السابقة من التحريف والتغيير والتبديل ما أبعدها عن أصلها الرباني الذي نزلت به.

أما التوراة فقد غيَّر فيه اليهود وبدلوا ونسبوه إلىٰ الله كذبًا وزورًا. وقد رد الله تعالىٰ مزاعمهم بقوله: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾[2].

أما الإنجيل الذي نزل علىٰ عيسىٰ عليه السلام فقد ضاعت أصوله قبل عام (٧٠م) في ظروف الاضطهاد والتعذيب الذي لحق بأتباع عيسىٰ عليه السلام، وانتشرت بين النصارىٰ في القرون الثلاثة الأولىٰ للميلاد عشرات الأناجيل ليس منها واحدًا منسوبًا إلىٰ المسيح عليه السلام، وإنما نسبت إلىٰ كاتبيها، وهي عبارة عن سير وقصص يكتبها أتباع المسيح عن حياته، ودعوته كما سمعوها من أسلافهم الذين رأوا المسيح وخدموه، وقد اعتمدت الكنيسة أربعة منها فقط هي: إنجيل متىٰ، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، وإنجيل مرقس، وحظرت الأناجيل الأخرىٰ، وقد لعبت يد التغيير والتبديل في النصرانية عقيدة وشريعة.

---

(١) سورة الإنسان: آية/ ٩.

(٢) سورة البقرة: آية ٧٩.

واتفقت المصادر التاريخية على أن اليد الطولى في التحريف كانت لمبشر من أتباع المسيح هو شاؤل[1] اليهودي الذي أعلن تنصره وسمى نفسه بولس، وكان بولس أول من أثار موضوع ألوهية المسيح مدعيًا أنه (ابن الله) - تعالى الله عن ذلك - وكانت هذه الدعوة البذرة الأولى في عقيدة التثليث عند النصارى.

لقد هدم بولس عقيدة التوحيد، وأوقع أتباع المسيح فيما كان قد حذرهم منه أبلغ تحذير مدعيًا أن المسيح ابن الله الوحيد، وأن الله رضي أن يقدم ابنه الوحيد ليموت مصلوبًا افتداء لبني آدم الذين حملوا خطيئة أبيهم لما نهاه الله عن الأكل من الشجرة ثم أكل منها، فكان كل مولود بعد آدم يولد وخطيئته معلقة في رقبته ليموت على الخطيئة، حتى جاء المسيح، وكان في صلبه فداء لبني آدم، وتخليصًا لهم من إثم الخطيئة.

ثم إن الكنيسة أكملت المسيرة فأضافت إلى فكرة الخلاص تقديس الخشبة التي صلب عليها المسيح (حتى صار الصليب هو الشعار المقدس لدى النصارى حتى اليوم).

ولن أطيل القول في المراحل التي مرت فيها النصرانية عبر المجامع المتعددة التي تقرر فيها عقيدة جديدة لا تمت إلى ديانة المسيح عليه السلام بصلة، ولكن أود القول بأن عقيدة التوحيد التي بشر بها المسيح عليه السلام قد تحولت إلى عقيدة التثليث (الأب والابن وروح القدس) ومع ذلك يقولون: إله واحد، ويعبرون عن ذلك بأنه واحد في ثلاثة، وثلاثة في واحد.

وإن الكنيسة بتبنيها لعقيدة التثليث قد فتحت على نفسها ثغرة واسعة يستطيع

---

(١) هو الاسم الأصلي لبولس، اشتهر أول حياته باضطهاد المسيحيين ثم تحول فجأة ليصبح الشخصية المسيحية الأولى، والقطب الكنسي الأعظم، وتسميه الكنيسة (بولس الرسول)، ومنذ ظهوره إلى الآن لم يحظ أحد في تاريخ الكنيسة بمثل ما حظي به من التقديس والإجلال إلا أن أحرار الأوربيين لم يخفوا عداوتهم له، أمثال (بنتام) صاحب كتاب (يسوع بلا بولس) و (غوستاف لوبون) في كتابه (حقائق الحياة) وغيرهم، انظر العلمانية ص/ ٣٧.

أعداؤها أن ينفذوا من خلالها إلىٰ هدم الدين البوليسي (نسبة إلىٰ بولس) الكنسي وكانت هذه العقيدة وأضرابها المقوم الأساس للفكر اللاَّديني الذي يستتر بستار النقد التاريخي للكتب المقدسة ابتداءً من القرن السابع عشر. ولم يقف التحريف والتبديل عند حدود العقيدة فحسب بل طال الشريعة أيضًا، فقد كان بولس (شاؤل) أول من سن سنة التنازل عن الشريعة في مقابل قبول العقيدة، يقول (برنتن): وكانت العقبة الكبرىٰ في وجه الأمميين - الذين وجدوا أسلوب الحياة المسيحية جذابًا - قانون اليهود (أي شريعة التوراة) ثم يشرح (برنتن) كيف أن بولس أزال هذه العقبة فأفتىٰ بأن الأغريق والمصريين والرومان الذين يقبلون المسيحية في حل من الختان، وفي حل من التقيد بحرفية القانون[1]، (أي تعاليم التوراة) وبمرور الزمن أصبح هذا الانحراف منهجًا مقررًا اعتمدته الكنيسة بعد مجمع نيقية عام (٣٢٥م) ففصلت بين العقيدة والشريعة، بين الدين والدولة. كما سيأتي.

المطلب الثالث: الإمبراطورية الرومانية تعتنق النصرانية

اعتنقت الدولة الرومانية العقيدة النصرانية في زمن الإمبراطور قسطنطين عام (٣٢٥م) وأعلنت علىٰ أثره المسيحية عقيدة رسمية للإمبراطورية الرومانية بعد أن كانت تدين بالعقيدة الوثنية.

ويذكر المؤرخون أن اعتناق قسطنطين للمسيحية، وإعلانها عقيدة رسمية كان محاولة منه لإنقاذ إمبراطوريته المتضعضعة من التفكك والانحلال[2]، ولم يكن عن إيمان حقيقي واقتناع.

(١) أفكار ورجال ص/ ١٨١.

(٢) حياة الحقائق ص/ ٦٨ عن المصدر السابق ص/ ٦٢.

وأما الكنيسة فلم تطلب من قسطنطين نشر الإنجيل الأصلي، وتحكيمه في شؤون الحياة، واكتفت بإحلال مسمىٰ (الأب والإبن وروح القدس) محل أسماء آلهة الرومان (جوبيتر، ومارس، وكورنيوس) وبقي الدين كما هو هواية شخصية محدودة التأثير لم يتغير، إلا أن المراسم الشكلية للعبادة كانت تؤدىٰ في معابد فأصبحت تؤدي في كنائس[1].

والذي أريد التأكيد عليه هنا:

١- أن أوروبا بدءًا من اعتناق الإمبراطورية الرومانية للنصرانية لم تعرف الدين الحق في وقت من الأوقات، بل عرفت النصرانية في صورتها التي وردت محرفة ومبدلة عن أصلها الرباني.

٢- أن أوروبا ومنذ اعتناقها للنصرانية لم تعهد تطبيق الدين الحق في حياتها العامة، فلم يكن ذلك في حساب الإمبراطورية الرومانية المسيحية، ولم يكن ذلك من أهداف الكنيسة النصرانية أيضًا، بل كانت قناعة الكنيسة بضرورة الفصل بين الدين والحياة، وإن كانت تصر علىٰ تكريس سلطتها ونفوذها علىٰ الشعوب والملوك. - كما سنرىٰ -

المطلب الرابع: مستندات الكنيسة في الفصل بين الدين والحياة

لم تجد الكنيسة حرجًا في الفصل بين الدين والحياة، مع أن مهمة الدين إصلاح حياة البشر وفق شرع الله، ومن ثمَّ إقامة العدل بين الناس.

قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[2].

بل حاولت الكنيسة أن تجد لنفسها مستندًا في الفصل بين الدين والحياة، من

---

(١) حياة الحقائق ص/ ٦٨ عن المصدر السابق ص/ ٦٢

(٢) سورة الحديد: آية/ ٢٥.

خلال نصوص الإنجيل تتذرع بها لتبرير موقفها، ومن أهمها نصان مشهوران:

الأول: القول المنسوب إلىٰ المسيح عليه السلام أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

الثاني: قول المسيح عليه السلام مملكتي ليست من هذا العالم.

أما النص الأول: فإذا عدنا إلىٰ الكلام المنسوب إلىٰ المسيح، لنتعرف علىٰ ظروف قوله - علىٰ افتراض صدوره عنه - فهو يقول كما في إنجيل متىٰ: ذهب الفريسيون - أي بعض اليهود - وتشاوروا لكي يصطادوه بكلمة، فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهِرودوسيين - أي الرومان - قائلين: يا معلم إنك صادق، وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالي بأحد، لأنك لا تنظر إلىٰ وجوه الناس، فقل لنا ماذا تظن: أيجوز أن تعطي جزية لقيصر أم لا؟ فعلم يسوع خبثهم وقال: لماذا تجربونني يامراؤون، أروني معاملة الجزية، فقدموا له دينارًا فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا له: لقيصر، فقال لهم: أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فلما سمعوا تعجبوا، وتركوه ومضوا[(١)].

ونفترض جدلًا أن القصة حدثت علىٰ هذا النحو فإن أقصىٰ ما تدل عليه أن المسيح عليه السلام - وهو يرىٰ أتباعه قلة مضطهدة تتبنىٰ دعوة جديدة ناشئة، ولم يكن في مقدورها أن تصطدم بالإمبراطورية الطاغية، وتواجهها بعداوة سافرة، ولم تكن هذه المواجهة مطلوبة منها، وهي لا تزال في طور الدعوة، فيقول لهم: إننا لم نؤمر الآن بقتال قيصر، فإذا فرض عليكم الجزية - ولا قبل لكم برد سطوته عنكم - فادفعوا له الجزية حتىٰ يأتي اليوم الذي يؤذن لكم فيه بالقتال لإخضاع قيصر لشريعة الله، وهذا يشبه حال المسلمين في مكة قبل الهجرة، والإذن بالقتال، حيث كان الحال يقتضي قول الله تعالىٰ للمؤمنين: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[(٢)]، حتىٰ جاءهم

(١) إنجيل متىٰ ٢٢/ ١٤ - ٢٣ وإنجيل مرقص ١٢/ ١٤ - ١٨.

(٢) سورة النساء: آية/ ٧٧.

الإذن بالقتال في قوله تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1]. فالمسيح عليه السلام - لو صحت العبارة - وافق علىٰ إجراء مؤقت تقتضيه ضرورة الواقع، وطبيعة الدعوة المرحلية، ولكن الكنيسة حمَّلت القصة - علىٰ فرض صحتها - فوق ما تحتمل، وزعمت أن معناها أن من حق قيصر أن يحكم عالم الأرض علىٰ أن يحكم الله عالم السماء، وهكذا سمحت للعالم المسيحي أن يحكمه القانون الروماني في كل شؤونه ما عدا «الأحوال الشخصية» من زواج وطلاق وتعميد، وتم بذلك فصل العقيدة عن الشريعة، وثم المسخ الكامل لدين الله عز وجل[2].

أما القول الثاني: «مملكتي ليست من هذا العالم»: فقد وردت هذه العبارة علىٰ لسان المسيح عليه السلام - علىٰ افتراض صحتها - في إنجيل يوحنا في قوله: دخل بيلاطس أيضًا إلىٰ دار الولاية ودعا يسوع وقال له: أنت ملك اليهود؟ أجابه يسوع: أمن ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عني؟ أجابه بيلاطس أمتك ورؤساء الكهنة أسلموك لي، ماذا فعلت؟ أجاب يسوع: مملكتي ليست من هذا العالم، لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلَّم لليهود، ولكن الآن ليست مملكتي من هنا[3].

والقصة تبدو واضحة حيث إنَّ اليهود قد دبروا مكيدة أخرىٰ بعيسىٰ عليه السلام فرأوا أنه يمكن إيغار صدر «بيلاطس» علىٰ المسيح بتلفيق تهمة ضده، مفادها أنه يدعي أنه ملك علىٰ اليهود، وزعيم سياسي، يهدف إلىٰ تخليص اليهود من الاستعمار الروماني، وهي تهمة تعرض المسيح لأقسىٰ العقوبات.

والمسيح وإن قال هذه الكلمة «مملكتي ليست من هذا العالم» - علىٰ فرض صحة

---

(١) سورة الحج: آية/ ٣٩.

(٢) مذاهب فكرية معاصرة. محمد قطب ص/ ١٧

(٣) إنجيل يوحنا ١٨/ ٣٤ - ٣٧.

نسبتها إليه - فإنما يريد أن يقول لبيلاطس: لست ملكًا من النوع الذي تتصوره أنت واليهود على طراز قيصر وكسرى، على أنه عز وشرف ومجد، وإنما ذلك كله عند الله في دار كرامته في الآخرة، وما دمت لست بطامع في مناصبكم الدنيوية، فما معنى محاولتكم لإدانتي وتجريمي؟ ولم يصرح المسيح، ولم يرد أن يقول: إنني بعثت إلى الضعفاء، والعجزة لأعظهم في الكنائس، ولأعمر بهم الأديرة، وتعاليمي ليست سوى طقوس روحانية لا علاقة لها بالحياة - كما فهمت الكنيسة - فقد أعلن دعوته صريحة على الملأ: لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض، ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا[1].

وهكذا نرى أن الكنيسة تعمد إلى عبارات تنسبها الأناجيل إلى المسيح قيلت مجازًا، أو وردت في ظروف مؤقتة، وملابسات خاصة لتقرر منها قواعد أصولية تؤسس عليها رؤيتها في فصل الدين عن الحياة، مع أن المعروف في الدين المنزل من عند الله تعالى على أنبيائه ورسله على أنه عقيدة وشريعة، لا ينفك أحدهما عن الآخر عقيدة في الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا شريك له ولا ولد، وتنظيمات تنظم حياة الناس في الأرض في إطار أوامر الله ونواهيه، فما يصلح دين بهذه الصورة، تشوه عقيدته على هذا النحو، ثم تفصل الشريعة فيه عن العقيدة، وتحصرها في نطاق ضيق محدود دون باقي نواحي الحياة المختلفة بأنظمتها ومناشطها المختلفة.

---

(١) إنجيل متى ١٠/ ٣٥ وانظر العلمانية ص/ ٧٢.

المبحث الثاني

تكريس رجال الكنيسة لسلطتهم الدينية

لم يقف الأمر عند تحريف العقيدة والشريعة، واعتماد الكنيسة الفصل بين الديني والدنيوي، بل تحول رجال الكنيسة إلىٰ طواغيت ومحترفين سياسيين تحت شعار رجال الدين (الإكليروس) والرهبانية، والعشاء الرباني، وبيع صكوك الغفران وإليك بيان ذلك باختصار:

١- رجال الدين (الإكليروس):

وهم طبقة رجال الكنيسة والقائمون علىٰ شأن الدين، وقد احتفظت هذه الطبقة بسلطتها وهيمنتها علىٰ نفوس النصارىٰ بما ألزمتهم به من قداسة وتعظيم، مستمدين سلطتهم واستبدادهم من اختصاصهم بشرح ما يسمىٰ الأناجيل، ثم استبدوا أكثر بالاحتفاظ بعلم (الأسرار) التي نشأت من التحريف والتصحيف والتي لا أصل لها في الدين المنزل.

وبالإضافة إلىٰ سلطتهم الدينية التي فرضوها علىٰ أتباع الكنيسة، فرضوا لأنفسهم سلطة أخرىٰ دنيوية يأكلون بموجبها أموال الناس بالباطل، ويتقبلون القرابين، ويفرضون علىٰ الناس العشور باسم الهياكل والبيع، مستغلين منصبهم الديني أسوأ استغلال.

٢- الرهبانية:

وهي الانقطاع للكنيسة، واعتزال متع الحياة، وإهانة النفس وإذلالها.

وقد اعتبر القرآن الكريم الرهبنة من بدع النصارىٰ التي فرضوها علىٰ أنفسهم، ولكن لم يوفوا بشروطها، ولم يعطوها حقها.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾(١).

٣- الأسرار المقدسة:

لقد عمدت الكنيسة إلىٰ تبرير كل طقس من طقوسها - يأباه العقل، وتنفر منه النفوس - بأنه «سرٌ إلهي»، فكلمة «سر» كانت ثوبًا فضفاضًا يستر كل نقائصها ومخازيها، وسلاحًا قويًا يقاوم كل اعتراض عليها.

فهناك سر التثليث الذي سبق الحديث عنه، وسر العشاء الرباني وغيرهما.

ويمكن أن نأخذ العشاء الرباني كنموذج للأسرار التي اختص رجال الكنيسة بمعرفتها وتفسيرها دون باقي أتباع الكنيسة، فقد ورد أصل مشروعيته في إنجيل متىٰ كما يلي: وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطىٰ التلاميذ، وقال: «خذوا كلوا هذا هو جسدي، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلًا: أشربوا منها كلكم الآن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا»(٢).

وقد كان كافيًا أن تقف البدعة عند هذا الحد لو لا أن الكنيسة - جريًا علىٰ عادتها في التحريف وسوء الفهم والخلط بين الحقيقة والمجاز - أضافت إلىٰ تلك العقيدة المعروفة بعقيدة التحول أو الاستحالة، وهي وجوب الاعتقاد بأن متناولي العشاء يأكلون جسد المسيح بعينه علىٰ الحقيقة، ويشربون دمه نفسه علىٰ الحقيقة أيضًا، أما كيف يتحول الخبز إلىٰ جسد، والخمر إلىٰ دم المسيح، فإن ذلك «قسم» لا يجوز لأحد أن يسأل أو يشك فيه وإلا عوقب بالحرمان والطرد من الملكوت!(٣).

---

(١) سورة الحديد: جزء من آية/ ٢٧.

(٢) إنجيل متىٰ ٢٦، ٢٧-٢٩.

(٣) المصدر نفسه ص/ ٩٦ – ٩٩.

٤- صكوك الغفران:

وهي عبارة عن كتابة وثائق للمشترين الراغبين بالجنة، تتعهد الكنيسة فيها بأنها تضمن للمشتري غفران ما تقدم من ذنوبه وما تأخر، وبراءته من كل جرم وخطيئة سابقة ولاحقة، ونجاته من عذاب المطهر، فإذا ما تسلم المشتري صك غفرانه، فقد أبيح له كل محظور، وحل له كل حرام، ماذا عليه لو زنا، وسرق، وقتل، بل لو جدَّف وألحد وكفر ما دام الصك رهن يده؟ أليس المسيح هو الذي منحه إياه، والمسيح هو الذي يدين ويحاسب؟ أتراه متناقضًا إلىٰ هذا الحد، يمنح الناس المغفرة ثم يحاسبهم علىٰ الذنوب؟.

وعليه فلم يكن ليحظىٰ بالحصول علىٰ صك غفران إلا أحد اثنين:

١- رجل ذو مال يشتري الصك من الكنيسة حسب التسعيرة التي تحددها هي.

٢- رجل يحمل سيفه ويبذل دمه في سبيل نصرة الكنيسة والدفاع عنها وحراسة مبادئها.

أما الآخرون فكانت قلوبهم تعتصر أسىٰ لأنهم لا يملكون ثمن الصك، أو لا يستطيعون أن يشتركوا في الحروب إما لعجزهم وإما لكونهم غير مستعدين للموت من أجل الكنيسة، لكنهم يظلون أسرىٰ لصراع نفسي مرير، وشعور بالحرمان قاتل.

أما نتائج الصكوك فهي كما يلي:

١- ازدياد مكانة رجال الكنيسة في نظر الجهلة والسذج من الناس.

٢- أثرت الكنيسة من عملية بيع الصكوك ثراءً فاحشًا، حتىٰ أصبحت بحق أغنىٰ طبقات المجتمع الأوروبي آنذاك، مزاحمة الإقطاعيين بما لها من مساحات واسعة من الأراضي، وبما تكدس في خزائنها من أموال تدفقت عليها من العطايا والهبات[1].

---

(١) نفس المصدر ص/ ١١٠.

المبحث الثالث

الطغيان الكنسي

١- الطغيان الديني:

منذ أن ظهرت المسيحية الرسمية إلىٰ الوجود بعد مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥م والكنيسة تمارس طغيانًا دينيًا علىٰ أتباعها فتحرِّم ما أحل الله، وتحلِّل ما حرَّم الله، وتشرع في الدين ما لم يأذن به الله، تشمل بعطفها من تشاء من الرحمة، وتحرم من تشاء.

فرضت عقيدة التثليث، وحرمت مخالفيها من الموحدين القائلين بوحدانية الله، وأن عيسىٰ الله عبد الله ورسوله، وليس لأحد أن يعترض علىٰ ما فرضته الكنيسة، حتىٰ ولا إبداء الرأي، وإلا كان مصيره اتهامه بالهرطقة التي كانت عقوبتها الموت بالطريقة التي يقررها رجال الكنيسة.

كان الختان واجبًا فأصبح محرمًا، كانت الميتة محرمة فأصبحت مباحة، كانت التماثيل شركًا ووثنية فأصبح تعبيرًا عن التقوىٰ، وكان زواج الرجال والنساء حلالًا فأصبح (بالرهبنة) محظورًا، وكان أخذ الأموال من الأتباع منكرًا فأصبحت الضرائب الكنسية فرضًا لازمًا، وأمور كثيرة نقلتها المجامع من الحل إلىٰ الحرمة، أو العكس دون أن يكون لديها من الله سلطان.

كما أضافت إلىٰ عقائد النصارىٰ التعميد، والعشاء الرباني، والأسرار، وقوَّت سلطتها بحق صكوك الغفران، وحق الحرمان إلىٰ غير ذلك، حتىٰ أصبحت الكنيسة ورجالها تمثل طاغوتًا دينيًا جاثمًا علىٰ قلوب أتباعها لا يجدون لهم فكاكًا أو مخرجًا.

٢- **الطغيان السياسي:**

من الطبيعي أن يكون لرجال الدين سلطة سياسية في الأمة التي تدين بدينهم، بل يجب أن تكون مقاليد الأمور في يد فئة مؤمنة متدينة تطبق الشريعة وتقيمها في حياة الناس.

لكن الذي حصل هو تحول رجال الدين الكنسي إلىٰ طواغيت ومحترفي سياسة، وفرضت الكنيسة نفسها وصية علىٰ الملوك والأمراء، ترغمهم علىٰ الخضوع المذل لها، وتجعل معيار صلاحهم منوطًا بمقدار ما يقدمونه لها من مراسم الطاعة وواجبات الخدمة.

وقد ظلت النفسية الأوروبية تعاني تمزقًا رهيبًا ما تزال آثارها ممتدة إلىٰ اليوم بسبب الصراع المزمن الذي دار بين الكنيسة وبين الملوك للقبض علىٰ مقاليد المجتمع، وكسب ولاء الأمراء.

لقد كان الملوك يضيقون ذرعًا بتسلط الكنيسة وتدخلها في شؤونهم، ولكن لا يملكون حيلة لمنعها بسبب سلطتها الروحية البالغة وهيكلها التنظيمي الدقيق واستبدادها المطلق.

وكانت الإهانة والإذلال مصير كل ملك أو أمير لا يذعن بسلطة الكنيسة، أو تحدثه نفسه التشكيك في تعاليمها.

كما حدث لملك بريطانيا هنري الثاني، والإمبراطور فريدريك الثاني، وهنري الرابع ملك ألمانيا وغيرهم.

ولم يكن تسلط الكنيسة السياسي علىٰ الملوك والأمراء بهدف فرض تطبيق شريعة الله علىٰ شعوبهم وإنما كان تسلطًا شخصيًا يهدف إلىٰ إخضاع الملوك والأمراء إلىٰ سلطان رجال الدين ورغباتهم الذاتية.

يقول الأستاذ محمد قطب: إن الكنيسة وهي تطالب بسلطانها الطاغي علىٰ

الأباطرة والملوك، أو حين مارست هذا السلطان بالفعل، لم تطالبهم قط بالانصياع إلىٰ شريعة الله وتطبيق أحكامها علىٰ الناس، إنما كانت تطلب وتمارس سلطانًا شخصيًا بحتًا، وأرضيًا بحتًا، هو أن يطأطئ الملوك والأباطرة لها الرؤوس ويعلنوا أنهم خاضعون لسلطانها(١).

٣- الطغيان الفكري:

تبنت الكنيسة نظريات علمية واعتبرتها عقائد إلهية تدخل في صلب الدين وصميمه، وعدَّت مخالفتها كفرًا بالدين، رغم ما ثبت من بطلانها، وفسادها.

ومن ذلك أن الكنيسة تبنت النظرية التي تقول بأن الأرض مستوية، وخالفها بعض العلماء وقالوا بكرويتها، عرف منهم:

* كوبر نيكوس: عالم فلكي بولندي عاش ما بين ١٤٧٢-١٥٤٣م (مات قبل أن يقع في قبضة محاكم التفتيش).

* وجردانوبرونو: فيلسوف إيطالي عاش ما بين ١٥٤٨-١٦٠٠ م (أحرق حيًا).

* وجاليلو: عالم فلكي إيطالي عاش ما بين ١٥٦٤-١٦٤٢ (سجن حتىٰ أعلن رجوعه عن قوله ظاهرًا).

فقامت قيامة الكنيسة عليهم وعلىٰ غيرهم، فأحرقت من أحرقت، وعذبت من عذبت، وهددت من هددت بالتعذيب والحرق في النار إن لم يكفوا عن هذه الهرطقة التي تقول بكروية الأرض.

ويقول التاريخ الأوروبي: إن الكنيسة قد فزعت فزعتها تلك حفاظًا علىٰ كيانها، الذي يقوم علىٰ الخرافة ويستند إلىٰ انتشار الجهل بين الجماهير، وإنها خشيت علىٰ

(١) مذاهب فكرية معاصرة ص/ ٤٤.

هذا الكيان أن يتصدع وينهار إذا انتشر العلم، وتبين للناس أن ما تقوله الكنيسة ليس هو الحقيقة المطلقة في كل شيء[1].

٤- الطغيان الاقتصادي:

لقد أصبحت الكنيسة بفضل الهبات، والإتاوات، والعشور، والهدايا، والغصب، والنهب، وغير ذلك من الوسائل أصبحت من ذوات الإقطاع - أي من كبار ملاك الأراضي ومن يعمل بها من الفلاحين المظلومين - بل كانت أملاكها في بعض الأوقات تفوق أملاك الأباطرة وأفراد الإقطاع[2].

ومن ثَمَّ فقد تحدد موقفها من القضايا السياسية والاجتماعية، فوقفت في صف الظلم تسانده وتزود عنه، وتحارب حركات الإصلاح، وكانت في ذلك منطقية مع وضعها باعتبارها من كبار الملاك، فكيف لها أن تحارب الإقطاع المتسلط علىٰ رقاب الشعوب الأوروبية المستضعفة وهي جزء منه؟.

(١) مذاهب فكرية معاصرة ص/ ٤٨.

(٢) المصدر نفسه ص/ ٧٠.

المبحث الرابع

الكنيسة الغربية أمام التحديات

من خلال استعراض تاريخ الكنيسة الحافل بالمخازي، والأخطاء، من طغيان روحي وفكري واقتصادي وسياسي وعلمي، وفساد خلقي، وانحراف سلوكي، ومساندة للظلم بجميع ألوانه، وتخذيل للمصلحين، وتخدير للمظلومين، وصدٍّ عن سبيل الله، وتشويه لصورة الدين، يزول العجب - بعد هذا كله - من النهاية التي وصلت إليها الأمور، من انسلاخ للناس في أوروبا عن ذلك الدين، ونفورهم منه، وثورتهم علىٰ رجاله، وإبعادهم له عن كل مجالات الحياة، ومن ثمَّ ترسخ الفكر العلماني في أوساط الشعوب الأوروبية، والتي عانت طويلًا من ظلم الكنيسة وجهالاتها.

لقد شكل هذا الموقف تيارًا قويًا في مواجهة الكنيسة رافضًا تعاليمها الدينية والأخلاقية، وحتىٰ أسس العقيدة - المحرفة التي تقوم عليها - الأب والابن وروح القدس.

وقد اتخذ هذا التيار المضاد للكنيسة ثلاثة اتجاهات.:

الأول: تحدي عقائد الكنيسة وإعلان الإلحاد.

الثاني: حركة الإصلاح الداخلي (البروتستانية).

والثالث: اعتماد أحكام العقل في مقابل الدين.

أما الأول: تحدي عقائد الكنيسة وإعلان الإلحاد:

فقد ظهرت صيحات المفكرين هنا وهناك تنتقد العقائد التي تقوم عليها الكنيسة، بل ربما تعلن الإلحاد صراحة، أو يكون الإلحاد تهمة توجهها الكنيسة لهؤلاء ومنهم:

١- جردانوا برونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠م) ومن الأمور التي نقلت عنه:

أ- رفض التسليم بالوحي على أنه حقيقة، سواء على صورته الكاثوليكية أو البروتستانية.

ب- رفض النظر إلى الأخلاق المسيحية على أنها سبيل السعادة الإنسانية.

ج- إنكار التثليث والأقانيم والتجسد والتحول(١).

٢- بارثو لوميوليجات: أنكر ألوهية المسيح، واعتبره مجرد إنسان أعدم سنة ١٦١٢م.

٣- إدوارد وايثمان: تشكك في التثليث، ونفى أن يكون الله ثلاثة أقانيم، ورفض قدسية العشاء الرباني، وأنكر تعميد الأطفال(٢).

٤- جوليوسيزار فانيني: ١٥٨٥ - ١٦١٩م خرج بهرطقة جديدة فهو ينفي وجود الله لكي لا ينسب إليه الشر، وينتهي إلى أن العبادة الحقة ليست عبادة الله، بل عبادة الطبيعة، وأن الأديان اختراع الحكام والكهان لاستذلال العباد. (قبض عليه وأعدم حرقًا وهو لم يتجاوز الرابعة والثلاثين(٣).

٥- القسيس فيرانت بالا فيسبنو: أعدم سنة ١٦٤٤ لاعتقاده أن الكنيسة لا تحتكر الحقيقة، وتعمل على تجهيل الناس، وقال بالإباحية الجنسية(٤).

٦- وفي اسكتلندا أنكر (جون الاسكتلندي) التثليث وألوهية المسيح وسخر بالأديان، قبض عليه، وأدين سنة ١٦٥١ وذهب إلى حبل المشنقة.

لقد كانت أعداد الضحايا كثيرة، مما يوحي بحجم التسلط الكنسي واستبداد رجالها، فقد قدر (لورنتي) سكرتير التفتيش في أسبانيا عدد الضحايا الذين تم إحراقهم

---

(١) الله في الفلسفة الحديثة جيمس كرليز ص ٣٣ - ٣٥.

(٢) الإلحاد في الغرب: رمسيس عوض ص ٦٨.

(٣) نفس المصدر ص/ ٢٧.

(٤) نفس المصدر ص/ ٢٧.

من ١٧٩٠ إلىٰ ١٧٩٢م بنحو ثلاثين ألف شخص[(١)].

ومن هنا بدأ التيار المضاد للكنيسة يقوىٰ ويتسع، ولم يعد بإمكان الكنيسة أن تحرق كل المهرطقين والمجدِّفين علىٰ كثرة ما قتلت، لقد أحرقت، وعذبت، لأن زمام الأمور بدأ يفلت من يدها.

وهناك حقيقة يجب أن نتذكرها وهي أن أوروبا بدأت تتململ من رقدتها بعد احتكاكها بالعالم الإسلامي منادية بالفكاك والإصلاح، وقد كان احتكاكها بالعالم الإسلامي عن طريقين:

أحدهما: الاحتكاك السلمي بطلب العلم في مدارس المسلمين في الأندلس، والشمال الأفريقي، وصقلية وغيرها من الأماكن القريبة من أوروبا.

والآخر: الاحتكاك الحربي خلال الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي.

وفي كلا الاحتكاكين تفتحت عيون أوروبا عن عالم مختلف كل الاختلاف عن عالمها، لا من ناحية العلم والحضارة فقط، بل من حيث القيم والمبادئ، وآفاق الحياة، وآفاق التفكير[(٢)].

والثاني: قيام حركة الإصلاح الديني (البروتستانتية)[(٣)]: وسيأتي الحديث عنها.

أما الثالث: فهو اعتماد أحكام العقل في مقابل الدين:

ففي النصف الثاني من القرن السادس عشر بدأت تتغير نظرة الإنسان الغربي إلىٰ الكون.

فهذا كبلر (١٥٧١ - ١٦٢٣) أعتنق ما قرره سلفه كوبر نيقوس من أن الشمس هي

---

(١) التاريخ الأسود للكنيسة: دي روزا ص/ ١٢٠ انظر العلمانيون والقرآن الكريم، د. أحمد الطعان، ص/ ٥٢.

(٢) انظر مذاهب فكرية معاصرة: الأستاذ محمد قطب ص/ ٧٠.

(٣) انظر فصل الليبرالية ص/ ٢٥٨.

المركز وليس الأرض، وتقدم بأدلة جديدة تنصر هذه النظرية، وأكد أن الكون يتحرك كجسم كامل حركة ميكانيكية[1].

أما غاليلو (١٥٦٤ - ١٦٤٢م) فقد أكد علىٰ الانفصال التام بين العلم والإيمان، وأعلن انحيازه إلىٰ نظرية كوبر نيق[2].

وهذا فرنسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦م) الفيلسوف التجريبي قد أكد علىٰ فصله بين العلم والإيمان[3].

ثم ديفيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦) الذي تبنىٰ النزعة الطبيعية، التي نادىٰ بها بيكون وهوبز.

لقد بدأ عصر جديد في تاريخ الفكر الأوروبي بظهور فلاسفة عقلانيين يطرحون تصوراتهم الجديدة حول الله عَزَّوَجَلَّ والكون والإنسان، ويحاولون بناء صرح جديد للعقل الأوروبي علىٰ أنقاض الصرح القروسطي الذي بدأ يتهاوىٰ، ومن هؤلاء العقلانيين: ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠م) وسبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧م) ومالبرانش (١٦٣٨-١٧١٥م) وليبنتز (١٦٤٦- ١٧١٦م).

وهذا العصر الجديد مهد لما يسمىٰ بولادة الدين الجديد (دين العقل) الذي يقوم علىٰ الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ورفض النبوة، والوحي أو الكنيسة.

قيام الثورة الفرنسية وعلمنة الحياة الغربية:

قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م، وشكلت منعطفًا خطيرًا في مجرىٰ التاريخ الأوروبي، بل والتاريخ العالمي أيضًا، ويمكن أن نصفها بأنها «القشة التي قصمت

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة: براتر ندرسل ص/ ٦٣ - ٦٥.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم ص/ ٢٠.

(٣) الله في الفلسفة الحديثة: جيمس كوليز ص/ ١٣٧.

ظهر البعير» وإن كان واقع الأمر لم تكن «قشة» وإنما كانت الضربة القاضية التي وجهت إلىٰ الكنيسة والملوك والنبلاء علىٰ حد سواء.

ففي السنوات السابقة للثورة بلغ الفساد السياسي والتدهور الاقتصادي في فرنسا غايته، وكان هناك طبقتان تترنحان في أعطاف النعيم، وتنغمسان في مختلف الملاذ هما: طبقة رجال الدين، وطبقة الأشراف أو النبلاء، بالإضافة إلىٰ الأسرة المالكة التي كانت عبئًا ثقيلًا علىٰ الجميع.

لقد تمخضت الثورة عن نتائج بالغة الأهمية، فقد ولدت لأول مرة في تاريخ المسيحية دولة جمهورية لا دينية، تقوم فلسفتها علىٰ الحكم باسم الشعب وليس باسم الله، وعلىٰ حرية التدين بدلًا من الكثلكة، وعلىٰ الحرية الشخصية بدلًا من التقيد بالأخلاق الدينية، وعلىٰ دستور وضعي بدلًا من قرارات الكنيسة(١).

لقد صار إقصاء الدين عن سائر المناشط الحضارية هو الأساس الذي بنت عليه الحضارة الغربية فلسفتها وتصوراتها. لقد صارت أساسًا في كل جوانب الحياة الأوروبية، فأصبحت علمانية في السياسة، وعلمانية في الاقتصاد، وعلمانية في الاجتماع، وعلمانية في الأخلاق، وعلمانية في الفن..... الخ.

وأيًا كانت الأسباب التي أدت بأوروبا إلىٰ العلمانية فهي تفسر الحدث ولا تبرره، ولا تبرر بالطبع نتائجها التي أدت إليها، والتي بدأ المفكرون الغربيون أنفسهم يتنبهون إليها، وينذرون بنتائجها، ولكن دون أن يعرِّجوا علىٰ السبب الحقيقي، ولا العلاج الحقيقي.

ولا ينبغي إغفال دور اليهود في استغلال الثورة الفرنسية، وقد ساقتها المقادير لصالحهم، فاستطاعوا أن يتغلغلوا في منظمات الثورة المختلفة كالجمعية التأسيسية، ونادي اليعاقبة، وبلدية باريس، وأن ينفثوا تلك الشعارات التي رددتها الجماهير

---

(١) انظر العلمانية ص/ ١٦٨.

بلاهة، ولاسيما شعار الثورة البارز «الحرية الإخاء المساواة» بدل الشعار الذي رفعته الجماهير في بداية الثورة وهو «الخبز، والخبز وحده»(١).

وكان لهذا الشعار عند اليهود تفسير خاص: فالحرية تعني تحطيم القيود الأخلاقية والتقاليد، والإخاء والمساواة معناه كسر الحواجز النفسية الاجتماعية التي تحول بينهم وبين انخراطهم في أجهزة الدولة وتنظيماتها، وإذابة الفوارق الدينية بينهم وبين غيرهم، كي تزول عنهم وصمة العار والمهانة.

(١) المصدر السابق ص/ ١٧٣، ويدعي اليهود أنهم صناع الثورة الفرنسية ومدبروها، وهي دعوىٰ مسرفة في المبالغة، وفي الحقيقة أنهم ما صنعوها - كما يزعمون - إلا أنهم أجادوا استغلالها.

المبحث الخامس

تسرب الفكر العلماني إلى بلاد الإسلام

عرفت أيها القارئ كيف أن العلمانية نشأت وترعرعت في أوروبا وسط بيئة، وظروف وملابسات أدت بالضرورة إلىٰ ظهورها واعتمادها كأساس فكري وفلسفي في التعامل مع الحياة بجوانبها المختلفة.

ونتساءل بعد ذلك عن سبب وصول العلمانية إلىٰ بلاد العرب والمسلمين مع أن الظروف مختلفة، والأسباب التي أدت إلىٰ ظهورها في الغرب ليس لها وجود في بلاد العرب والإسلام؟.

وعلىٰ كل حال فإن وصول العلمانية إلىٰ بلداننا يرجع في الأصل إلىٰ الاحتكاك المباشر بين أبناء العرب والمسلمين وبين الحضارة الغربية الحديثة، ولكن كيف تم ذلك؟.

لا شك أن اتصال المسلمين بالحضارة الغربية - بعد عصر النهضة - كان في البداية محصورًا في الاستفادة من التقدم المادي الذي وصل إليه الغرب، ولاسيما في المجال العسكري، وتزامن ذلك - تقريبًا مع بعثات طلابية لأبناء الأقلية النصرانية في البلاد العربية للدراسة والتحصيل العلمي، وإليك بيان ذلك من خلال المطلب التالي:

المطلب الأول: اتصال العالم الإسلامي بالغرب بعد عصر النهضة

يمكن إجماله على النحو التالي مراعيًا في ذلك التسلسل الزمني:

١- البعثات الدراسية إلى بلاد الغرب:

لعل بواكير الاتصال المباشر بين الحضارتين يرجع إلى النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، وتحديدًا إلى العلاقة المتينة بين الأمير الدرزي فخر الدين الثاني (١٥٧٢-١٦٣٢م) حاكم لبنان، والبابا (غريفواريوس) الثالث عشر (١٥٨٥- ١٦٠٥م)، فقد فتح هذا الأمير أمام الطلبة اللبنانيين باب الذهاب إلى روما للدراسة، ومنحهم أرضًا ومساكن، ثم أنشأ لهم مدرسة خاصة عام (١٥٨٤م) سماها المدرسة المارونية، وتعاطف الأمير فخر الدين الثاني كثيرًا مع الإرساليات الأوروبية، وبسط لهم يد الحماية في بلاد الشام حتى صار الأوروبيون يدعونه «حامي النصارى في الشرق»[(١)]، ورجع هؤلاء الطلبة إلى لبنان وهم على حظ كبير من المعرفة والاطلاع على علوم الغرب، واتجاهاته الفكرية والسلوكية وكانوا ثمرة الإرساليات الآتية من أوروبا وفرنسا خصوصًا، ثم من أمريكا، ثم أصبحوا بعد ذلك في نظر القوميين والعلمانيين العرب، أركان النهضة وطلائع التنوير[(٢)]. وفي نظرنا أن هؤلاء الطلبة يمثلون طلائع تسلل الفكر العلماني الغربي إلى ديار المسلمين. لاسيما وقد تبوأ هؤلاء المبتعثون العائدون من الغرب أعلى المناصب الإدارية، والمراكز الثقافية في مجتمعاتهم.

ثم تتالت البعثات التعليمية من الدول العربية إلى أوروبا، ولنأخذ على ذلك مثالًا بالوالي على مصر محمد علي باشا الذي عرف باهتمامه المبكر بالابتعاث إلى أوربا، ولم يكن في تقديره ولا غيره من ولاة أمور المسلمين أن يتعلم مبعوثوهم أكثر من

---

(١) انظر تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي ص/ ١٤٢-١٤٣ منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء لبنان، انظر العلمانيون ص/ ١٣٢.

(٢) المصدر نفسه ص/ ١٣٢.

الخبرات التي بعثوا لتحصيلها، ولذلك كانوا يوضعون تحت مراقبة دقيقة، ولكن ذلك كله لم يحل دون دخول الأفكار الأوروبية الجديدة، بما تأثر به أعضاء البعثات وما شاهدوه في المجتمع الأوروبي، وما كتبوه، ويضرب الدكتور محمد محمد حسين مثلًا بعضوين من الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين: أحدهما مصري أقام في باريس خمس سنوات (من ١٨٢٦-١٨٣١م) وهو رفاعة الطهطاوي، والآخر تونسي أقام في باريس أيضًا أربع سنوات (من ١٨٥٢- ١٨٥٦م) وهو خير الدين التونسي، حيث كان فيما كتباه صدىٰ لتفكير القرن الثامن عشر في أوروبا، وهي آراء تظهر للمرة الأولىٰ في المجتمع الإسلامي.

وعلىٰ الرغم من أن الباحثين لا يشككون في نوايا الرجلين، وأنهما ربما قالا ذلك عن حسن قصد، ودون معرفة بأغوار تلك الأفكار وحقائقها، إلا أنهما قد جلبا هذه البذور الغربية، وألقياها في التربة الإسلامية، وتعهدها من جاء بعدهما بالسقي والرعاية حتىٰ نمت وضربت جذورها في الأرض(١).

٢- التعاون في مجال التدريب العسكري:

تطلع المسلمون إلىٰ نقل العلوم الغربية وخاصة العسكرية منها والتي تفوق فيها الغرب، وهم تحت وطأة الشعور بخطر وضعهم الحربي الضعيف، واتخذ هذا النقل طريقتين: إرسال بعثات إلىٰ البلاد الأوروبية في بعض الأحيان، واستقدام أساتذة وخبراء غربيين في أحيان أخرىٰ للتدريس في المعاهد العلمية علىٰ اختلاف أنواعها ودرجاتها، وللتخطيط للنهضة الحربية المأمولة.

ففي زمن الخلافة العثمانية أنشأ السلطان سليم الثالث مدارس للحربية والبحرية، واستقدم بعض المهندسين من السويد وفرنسا والمجر وإنكلترا للاستعانة بهم في إنشاء الصناعات الحربية، وتدريب فرق الجيش علىٰ النظم والأسلحة الجديدة، وتم إنشاء

(١) الإسلام والحضارة العربية ص/ ٢٠، والعلمانيون ص/ ١٣٨.

أول فرقة نظامية في الجيش التركي سنة ١٧٩٦م، ثم تتابعت المحاولات من قبل الخلفاء العثمانيين بعده[1].

أما في مصر فكان محمد علي باشا يسلك الطريق نفسه محاولًا بناء نهضة حربية عقب تنصيبه واليًا علىٰ مصر سنة ١٨٠٥م وأخذ في إنشاء جيش حديث مدرب علىٰ النظام الأوروبي.

ولم تلبث تونس أن اتجهت الوجهة نفسها حين أحست بحاجتها إلىٰ حماية نفسِها من النفوذ الأجنبي المتزايد، فأنشأت جيشًا نظاميًا، وأفتتح أحمد باشا (باي الأول) مدرسة للعلوم الحربية لتخريج ضباط وطنيين لهذا الجيش كان يديرها أحد الإيطاليين، وكان يقوم بالتدريس فيها مدرسون من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين.

وفي إيران أدخلت أسرة القاجار - التي حكمت إيران في القرن التاسع عشر - النظم الأوروبية العسكرية علىٰ جيشها، وفتحت من أجل ذلك كلية للعلوم والفنون سنة ١٨٥٢م تسمىٰ (دار الفنون) قامت علىٰ أساس غربي، وكان أساتذتها من الأوروبيين[2].

ولم يكن لدىٰ السلاطين والولاة - علىٰ الأقل إلىٰ هذا المدىٰ، وفي هذه الحدود - شعور بالتعارض بين الإصلاح العسكري والإسلام، لأن الأمر كان بعيدًا عن أن يمس نظمه أو قيمه، ولكن الأمور لم تسر علىٰ ما أريد لها أن تكون.

٣- حملة نابليون على مصر:

كانت حملة نابليون بونا بارت الفرنسية علىٰ مصر التي بدأت سنة (١٧٩٨م - ١٢١٣هـ) بداية الغزو الصليبي الحديث، ولكنه غزو من نوع جديد، فقد جند مع الحملة الفرنسية العقول، وكل ما وصلت إليه الحضارة الغربية من منجزات مادية وفكرية

(١) الإسلام والحضارة الغربية د. محمد محمد حسين ص/ ١٦.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

وثقافية لتسهم معه في تكريس هذا الغزو وتوطيد أركانه.

وإذا كان لحملة نابليون من حسنة فهي إيقاظ الأمة ولفت أنظارها إلىٰ الواقع المتردي الذي وصلت إليه، ولكنها حملت معها أعراضًا مَرَضية أخذت تتفشىٰ وتنتشر في المجتمع المصري من أزياء وعادات وتقاليد بالإضافة إلىٰ الفكر الوافد الذي زرعه نابليون في عقول بعض الفئات، وبدأ ينمو حتىٰ أينعت ثماره فيما بعد علىٰ يد سلامه موسىٰ وأمثاله.

لقد جاء الفرنسيون إلىٰ مصر بكل ما نشاهده اليوم من مظاهر العلمانية في الأخلاق والسلوك والفكر، فقد قتل نابليون عددًا كبيرًا من العلماء، ودنس جنوده المقدسات، وزينوا للمصريين مخالفة دينهم بالممارسات الشنيعة، وتأثرت بهم المرأة المصرية، وخرجت عن حشمتها، وحجابها، واختلطت بهم، وكان الهدف الأكبر للفرنسيين هو قلب التقاليد الإسلامية المصرية[1].

٤- تأسيس المدارس والجامعات النصرانية والتبشيرية في لبنان:

أنشأ بطرس البستاني (١٨١٩-١٨٨٣) المدرسة الوطنية في بيروت سنة ١٨٦٣م، ثم أصبح النصف الثاني من القرن التاسع عشر مسرحًا للتنافس الشديد في إنشاء المدارس، فكانت مدرسة عينطورة، ومدرسة القديس يوسف، والمدرسة السورية الإنجليزية، ومدارس الجمعية الأهلية كالمدرسة البطريركية، ومدرسة الأقمار، ومدرسة الحكمة، ومدرسة كفتين وغيرها[2].

ثم أسست الجامعة الأمريكية البروتستانتية في بيروت سنة ١٨٦٦م وتأيدت بمطبعة متطورة، واعتبرت أحد المراكز الرئيسة في الشرق، وكان هدفها الأساسي هو بعث

---

(١) انظر الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ، د. ليلىٰ عنان ٢/ ٣٩، ومبدأ السيبة في الفكر الإسلامي. محمود النفيسة ص/ ٢٤ وانظر العلمانيون ص/ ١٣٤.

(٢) عنادل مهاجرة. عمر الدقاق ص ١٦ منشورات اتحاد الكتاب العربي ١٩٧٢ وانظر العلمانية وانتشارها د. فتحي القاسمي ص/ ٢١٦.

الأفكار التنصيرية، وإشاعة الثقافة الغربية في الوسط المسيحي أولًا والإسلامي ثانيًا.

وكان الرهط الأول من العلمانيين قد تخرجوا فيها، ومن هؤلاء شبلي شميل، ثم يعقوب صروف، وفارس نمر، ثم جرجي زيدان صاحب مجلة الهلال[1] وغيرهم.

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري رَحِمَهُ اللَّهُ: إن ولادة العلمانية في العالم الإسلامي استغرقت وقتًا طويلًا، ودخلت مخاضها بلحظات عصيبة من الصراع بين الماضي والحاضر، وظل ظهورها يتم شيئًا فشيئًا حتىٰ اكتمل في القرن الماضي، ثم بدأ ينحسر في السنوات الأخيرة، حيث يتحدث الناس اليوم عن «ما بعد العولمة»[2].

المطلب الثاني: الدعوات الصريحة إلى علمنة الإسلام ومقارنتها مع الغرب

أصبحت مصر المنطلق الأول لدعوات العلمنة والتغريب، ولاسيما بعد أن هاجر إليها دهاقنة الفكر التغريبي من لبنان بذريعة فتنة ١٨٦٠ طلبًا للحرية والاستقرار، (أو نتيجة مؤامرة مدروسة خطط لها في أروقة مراكز اتخاذ القرار في الغرب، باعتبار أن مصر قلب العالم العربي، ومهد الحركات الفكرية والسياسية الحديثة).

ومن هؤلاء المهاجرين: فرنسيس مراش بين عامي ١٨٦٧-١٨٧٣م، وخليل سعادة، وبخيت حداد بين عامي ١٨٦٧-١٨٩٩م، وشبلي شميل سنة ١٨٨٦م، وفرح أنطون ١٨٩٧ واستقر في مصر أيضًا كل من يعقوب صروف، ونقولا حداد، وفارس نمر[3]، وهم رموز الحركة القومية والعلمانية في تلك الحقبة من تاريخنا القريب.

---

(١) العلمانية وانتشارها ص/ ٢٢١.

(٢) موسوعة اليهود واليهودية ص/ ٢٢٩ دار الشروق القاهرة ط ١/ ١٩٩٩م، وانظر أيضًا المفترون «خطاب التطرف العلماني في الميزان» فهمي هويدي ص/ ٢٤٢ دار الشروق القاهرة ط ١/ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٣) العلمانية وانتشارها د. فتحي القاسمي ص/ ١٧.

وقد تعالت الدعوات من مصر وغيرها معلنة الانسلاخ عن الذات، و اللحوق بركب الغرب (أو التغريب)، ولنأخذ لذلك بعض النماذج:

أ- سلامة موسىٰ: صاحب كتاب (اليوم والغد) فقد احتوىٰ كتابه علىٰ مقالات نشرت في خلال سنتي ١٩٢٥-١٩٢٦.

وهو يعرض آراءه بصراحة عارية، لا يبالي معها سخط الناس أم رضوا.

يقول في مقدمة كتابه «اليوم والغد»: كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضي في الأدب كما أزاوله، فهي تتلخص في أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا، وأن نلتحق بأوروبا، فإني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عني، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها، وزاد شعوري بأنها مني، وأنا منها، هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سرًا وجهرة، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب[1].

ب- طه حسين: في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر»، فقد ظهر سنة ١٩٣٨م وكان كتابه هذا أشد خطرًا وأبلغ أثرًا من كتاب سلامة موسىٰ، ويعود ذلك إلىٰ أن طه حسين قد شغل مناصب كبيرة في الدولة، مكنته من تنفيذ برامجه، وإرساء أسس تنفيذها علىٰ الأقل، فقد كان عميدًا لكلية الآداب في القاهرة، ثم مديرًا عامًا للثقافة بوزارة التربية والتعليم.

وكان مديرًا لجامعة الإسكندرية، وكان آخر الأمر وزيرًا للتربية والتعليم إضافة إلىٰ شهرته وكثرة المعجبين به، وتأثر الكثرة الكبيرة من تلاميذه بآرائه ومناهجه.

ويمكن رد مضمون الكتاب إلىٰ ثلاثة أصول هي:

* الدعوة إلىٰ حمل مصر علىٰ الحضارة الغربية وطبعها بها، وقطع ما يربطها بقديمها وإسلامها.

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د. محمد محمد حسين ص/ ٢١٢.

* الدعوة إلىٰ إقامة الوطنية وشؤون الحكم علىٰ أساس مدني لا دخل فيه للدين، أو بعبارة أصرح دفع مصر إلىٰ طريق ينتهي به إلىٰ أن تصبح حكومتها لا دينية.

* الدعوة إلىٰ إخضاع اللغة العربية لسنة التطور، ودفعها إلىٰ طريق ينتهي باللغة الفصحىٰ التي نزل بها القرآن الكريم إلىٰ أن تصبح لغة دينية فحسب كالسريانية، والقبطية، واللاتينية، واليونانية[1].

ج- ضياء كوك ألب: (١٨٧٥ - ١٩٤٢م) في تركيا حيث ردد ما ردده سلامة موسىٰ وطه حسين، فدعا إلىٰ سلخ تركيا عن ماضيها القريب، وتكوينها تكوينًا قوميًا خالصًا.

وقال: الحضارة الغربية هي الشارع الوحيد إلىٰ التقدم، علينا أن نختار إحدىٰ الطريقين: إما أن نقبل الحضارة الغربية أو نظل مستعبدين[2].

إنه مهد الطريق لحلم انتظره الغرب طويلًا، وهو سلخ تركيا عن تاريخها الإسلامي العريق.

د- مصطفىٰ كمال أتاتورك: (١٨٨١ - ١٩٣٤) قام بإلغاء الخلافة في ٣ / آذار مارس ١٩٢٤م وقال: إن الإسلام يخنق الطموح في نفوس أصحابه، ويقيد فيهم روح المغامرة والاقتحام، والدولة لا تزال في خطر دائم ما دام الإسلام دينها الرسمي[3]، ومن الإجراءات الخطيرة التي أتخذها: إلغاء الحرف العربي لقطع الصلة بين الأتراك ودينهم وقرآنهم، ألغىٰ وزارة الشؤون الدينية، والمحاكم الشرعية، وتم تغيير التقويم الهجري في سنة ١٩٢٦ ثم وضع قانونًا جزائيًا جديدًا تبنىٰ القانون السويسري في أكتوبر ١٩٢٦م، وألغىٰ اعتماد الإسلام كدين رسمي للدولة في ١٠ إبريل ١٩٢٨م، ورفع الآذان

---

(١) نفس المصدر ٢/ ٢١٩

(٢) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص/ ٤١

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/ ٢١٩

باللغة التركية بدلًا من اللغة العربية عام ١٩٣٢م، وبذلك حقق أحلام ضياء ألب وسلامة موسىٰ وأضرابهما.

هـ- وفي الهند ظهر سيد أحمد خان (١٨١٧ - ١٨٩٨م) وكان متعاونًا مع الاستعمار الإنجليزي الذي كان يحتل الهند وقتئذ، وهو يردد مقولة طه حسين، وسلامة موسىٰ، وضياء كوك ألب فيقول: لابد أن يرغَّب المسلمون في قبول الحضارة الغربية بكمالها، حتىٰ لا تعود الأمم المتحضرة تزدريهم أعينها، ويعتبروا من الشعوب المثقفة(١).

و- الشيخ علي عبدالرازق وكتابه «الإسلام وأصول الحكم».

فقد كان الحدث الأخطر في معركة العلمانية مع الإسلام هو ظهور كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق، والذي ظهر عام (١٩٢٥م) بعد التطورات التي أعقبت إلغاء الخلافة، وإعلان جمهورية تركية علمانية، والكتاب يدور حول أن الخلافة نظام تعارف عليه المسلمون، وليس في أصول الشريعة ما يلزم به.

وقد حوكم المؤلف أمام هيئة كبار العلماء التي أصدرت حكمها في ٢٢ محرم ١٣٤٤هـ ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥م، والحكم يقضي بإخراج الشيخ علي عبد الرازق، أحد علماء الجامع الأزهر، والقاضي الشرعي بالمحكمة الابتدائية الشرعية، ومؤلف كتاب «الإسلام وأصول الحكم» من زمرة العلماء(٢).

ورغم هذه المحاكمة، والحكم الصادر بحق صاحب الكتاب إلا أن الكتاب أعطىٰ حجة قوية لدعاة العلمانية، يتذرعون به في دعوتهم إلىٰ فصل الدين عن الحياة، وترسخت مفاهيم التغريب في العالم الإسلامي والعربي، لاسيما وأن صاحبه شيخ أزهري وقاضٍ شرعي. ويصعب استقصاء أصحاب هذه الدعوات النشاذ علىٰ وجه التفصيل، واكتفيت بذلك اختصارًا.

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية، والفكرة الغربية، أبو الحسن الندوي ص/ ٦٦.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د. محمد محمد حسين ٢/ ٨٠.

المطلب الثالث: دور النصارى العرب في تعميق التوجهات العلمانية

لا ينبغي إغفال دور النصارىٰ العرب في الدعوة إلىٰ العلمانية، إما بشعارها الصريح، أو تحت أسماء أخرىٰ كالقومية والوطنية، بل هم أول من دعا إلىٰ العلمانية التي عرفتها أوروبا بعد الثورة الفرنسية نتيجة الاتصال بين نصارىٰ العرب وأوروبا من خلال البعثات التعليمية إلىٰ الغرب[1] - كما سبقت الإشارة إليه -، ومن أجل ذلك فقد وجد المخطط اليهودي الصليبي فيهم بغيته المنشودة لهدم الخلافة الإسلامية، وعزل الشريعة عن ميدان الحياة وتوجيه المجتمع، وكانت جهود النصارىٰ العرب لتحقيق هذا الغرض يسير في اتجاهين:

الأول: الأعمال السياسية:

فقد كانوا علىٰ صلة وثيقة بالجمعيات الماسونية، ومجلس الكنائس العالمي الذي يقف وراء الإرساليات التبشيرية في العالم، وبالتنسيق مع هذه الأطراف كوَّنوا الجمعيات السرية التي تناهض الخلافة العثمانية وتدعو إلىٰ حكومة لا دينية وطنية أو قومية، ومن هذه الجمعيات: جمعية بيروت السرية (فارس نمر) وجامعة الوطن العربي (نجيب عازوري)، والجمعية القحطانية، وجمعية العربية الفتاة، ثم الحزب القومي السوري الاجتماعي (أنطون سعادة) وأخيرًا حزب البعث (ميشيل عفلق)[2].
(انظر تفصيل ذلك في فصل القومية)

الثاني: الأعمال الفكرية:

فقد كان النصارىٰ العرب وراء نشر الثقافة والفكر الغربيين، مستخدمين الوسائل الحديثة لاسيما الصحافة التي أنشأوها وأصبحت منبرًا لهم مثل: الجنان، والمقتطف،

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية. د. محمد محمد حسين ص/ ٦١.

(٢) القومية العربية في ضوء الإسلام د. صالح العبود رسالة ماجستير بجامعة أم القرىٰ.

والهلال، وكان محرورها أمثال نصيف اليازجي، ويعقوب صروف، وجرجي زيدان يمثلون طلائع اللادينية في الشرق الإسلامي.

كما أتجه فريق منهم الىٰ التراث، والتأليف الموسوعي أمثال أحمد فارس شدياق، وبطرس البستاني، ولويس شيخو، وجرجي زيدان. وغيرهم

ويعترف ألبرت حوراني - قومي معروف - بأنه «قد نادىٰ بفكرة مجتمع قومي علماني فريق من الكتاب المسيحيين»[1] وعلىٰ كل حال فقد اتخذت الأنظمة المعادية للإسلام من الأقليات النصرانية ذريعة لرفع الشعار العلماني «الدين لله والوطن للجميع» ومناهضة تطبيق الشريعة الإسلامية.

المطلب الرابع: الأزمة الحضارية والمظاهر العلمانية

ليس غريبًا أن يخطط أعداء الإسلام من اليهود والصليبيين للنيل من هذا الدين وإضعافه، وهو بلا شك مخطط ذكي يملك من وسائل التأثير وتنوعها ما يفوق التصور أحيانًا، فهو فكر تدعمه القوة، وحضارة يمدها العلم، ونضال يحكمه النظام، ولا يزال أصحاب الباطل ماضيين في اتخاذ أساليب متعددة جيلًا بعد جيل، يزحفون ويزحفون، حتىٰ يسدُّوا علىٰ الناس كل سبيل للحق.

غير أن ذلك كله لا يعني أن نلقي عليه تبعاتنا، وننسب إليه مشاكلنا وسوء أحوالنا، كأنما هو قوة أسطورية اجتاحتنا بغتة، دون أن نستطيع لدفعها بدًا، بل من الإنصاف والحكمة أن نقر بأنه ما حل بأمتنا من ويلات ومصائب ما كانت لتوجد لو لا العوامل

(١) نفس المصدر ص/ ٨٠، وانظر العلمانية ص ٥٥٦، وأيضًا فصل المقال فيما بين العلمانية والماسونية من الاتصال ص/ ١٠٥.

الذاتية الكامنة في أنفسنا ومجتمعاتنا.

إننا لم نؤت إلا من قبل أنفسنا، وما عوقبنا إلا بما كسبت أيدينا، نحن الذين أعطينا الكفار الفرصة ليخططوا ضدنا، أو نحن الذين مكناهم ليضعوا المبرر لحربنا أحيانًا، نعم أسهمنا بعللنا وأدوائنا في إنجاح مخططاتهم.

والله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾(١). ثم يقول عَزَّوَجَلَّ أيضًا: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾(٢).

فلولا إفلاسنا من الصبر والتقوىٰ، بل ومن الإيمان والتصور السليم، والأخذ الصحيح بالسنن الربانية وبأحكامه التشريعية ما كان لهذه المخططات من أثر، وإن كان فهو كالجرح الذي سرعان ما يندمل أو الإغفاءة تعقبها الوثبة(٣)، وهذا من طبيعة الصراع الفكري والحضاري بين الأمم، فما طبيعة هذا الصراع؟.

الصراع الفكري والحضاري ظاهرة كونية تعمل علىٰ مر الأزمان، واختلاف البيئات وهي بعض ما يتضمنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾(٤).

ومن خلال هذه السنة الكونية تتقدم البشرية، فينقل بعضهم عن غيرهم أحسن ما عندهم مما استحدثوه، وتتخلص من عناصر الضعف وعوامل التخلف التي تتسرب إلىٰ النفوس عبر الأجيال، نتيجة لما تصاب به الجماعات البشرية من التبلد والركود الذي يصاحب الترف، تعمل هذه الظاهرة الكونية والسنة الإلهية رضي الناس أم كرهوا.

---

(١) سورة الشورىٰ: آية/ ٣٠.

(٢) سورة آل عمران: آية/ ١٢٠.

(٣) انظر العلمانية، ص/ ٥٦٠.

(٤) سورة البقرة: آية/ ٢٥١.

والله سبحانه وتعالى يداول الأيام بين الناس، فتبدوا الأمم في فترة من فترات تاريخها مؤثرة في حال قوتها، بينما تبدو في فترة أخرىٰ متأثرة في حال ضعفها.

لكن الناس ليسوا في ذلك علىٰ سواء. فالأمة القوية المتماسكة لا تأخذ في هذا الصراع إلا ما يثبِّت كيانها، ويبرز خصائصها، بينما تأخذ الأمم الضعيفة كل ما يساق إليها مما يضر وما ينفع، لذلك أفاد المسلمون من هذا الصراع حين كانوا أمة قوية قاهرة في صدر الإسلام، بينما خسروا في الصراع المعاصر الذي نقلوا فيه ما نقلوا وقلدوا ما قلدوا من موقع الضعف، فيتوهمون فيه أن كل ما عند غيرهم من الغزاة الأقوياء خير مما عندهم(١).

وعندئذ فحين نقول: إننا كنا مسلمين حقًا عقيدة وسلوكًا وتطبيقًا حتىٰ جاء هؤلاء الكفار فأفسدوا علينا ديننا ودنيانا، فهذا يقطعنا عن طريق العودة إلىٰ التصويب والتصحيح، وأما إذا أقررنا بأننا كنا منحرفين عن المنهج الحق المبين، وتعرفنا علىٰ مظاهر هذا الانحراف وأسبابه، ورسمنا خطة للعودة إلىٰ الحق فنحن عندئذ نسير في الاتجاه الصحيح والله المستعان.

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية ص/ ١٣.

المبحث السادس

العلمانية والإسلام

بغض النظر عن النتيجة التي انتهىٰ إليها الصراع بين الكنيسة من جهة والعلماء والمفكرين من جهة أخرىٰ، فإن العلمانية فكرة أوروبية نشأت لحل مشكلة أوروبية فرضتها معطيات ارتبطت بالتجمعات الأوروبية في ظل شروط تاريخية معينة.

وإذا صحت دعوىٰ العلمانيين في الغرب بالنسبة للدين الكنسي أنهم يتعايشون معه، ويتعايش معهم دون تدخل أحدهما في شؤون الآخر - وهي ليست صحيحة في الحقيقة كما رأينا - فإنها بالنسبة للإسلام لا تصح بحال.

وذلك لأن المبررات النظرية للعلمانية التي ظهرت لدىٰ الفلاسفة والمفكرين الأوروبيين منذ القرن السادس عشر، هذه المبررات لم يوجد في الإسلام ما يدعو إليها علىٰ الإطلاق[1]. وذلك للأسباب التالية:

١- إن التحريف الذي طال العقيدة النصرانية وحولها إلىٰ عقيدة وثنية تؤله المسيح وتجعله معبودًا من دون الله، حولها من عقيدة تقوم علىٰ وحدانية الله وعبادته إلىٰ ديانة أخرىٰ بعيدة عن مصدرها الإلهي الصحيح، إن هذا الدين المخترع لا يقارن بدين الإسلام ذي العقيدة الصافية التي تقوم علىٰ توحيد الله تعالىٰ وإفراده بالعبادة، وهي دعوة جميع الأنبياء والرسل إلىٰ أقوامهم من آدم عليه السلام إلىٰ نبينا ﷺ نداء واحد ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[2].

(١) العلمانية: محمد مهدي شمس الدين ص/ ١٥٩.

(٢) سورة الأعراف: آية/ ٥٩.

٢- عقيدة التثليث النصرانية الغامضة التي يعجز العقل عن فك رموزها والتي كانت محل تشكيك وإلحاد كثير من المفكرين الغربيين يقابلها عقيدة إسلامية يسيرة الفهم، واضحة المعاني، متسقة مع الفطرة، موافقة للعقل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾(١).

عقيدة توضحها سورة واحدة صغيرة في القرآن قلَّ أن تجد مسلمًا لا يستظهرها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾(٢).

٣- اعتقاد الكنيسة بربوبية المسيح، وأنه ابن الله - تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا - هو خلط بين حقيقة الألوهية والعبودية، أما في الإسلام فمحمد ﷺ عبد الله ورسوله، وهو بشر كغيره من البشر ولكنه مرسل من الله بوحيه ورسالته ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾(٣).

٤- أما تحريف الأناجيل، وضياع إنجيل عيسىٰ عليه السلام في وقت مبكر من تاريخ النصرانية، لا يقارن بحفظ مصدري الإسلام القرآن الكريم والسنة المطهرة، فقد استحفظ الله الأمم السابقة علىٰ كتبها فضاعت ونسيت، وأما القرآن الكريم فقد وعد الله تعالىٰ بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾(٤).

فهو منقول إلينا بالتواتر لم ينقص منه حرف أو يزاد، فلو أخذ أحد نسخة مطبوعة من القرآن الكريم من ماليزيا مثلًا وأخرىٰ من مصر، وثالثة من أمريكا ثم قارن بينهما لاتضح له أنها متطابقة تمامًا، وهو ما لا بد منه.

---

(١) سورة الروم: آية/ ٣٠.

(٢) سورة الإخلاص: آية ١ - ٤.

(٣) سورة الكهف: آية/ ١١٠.

(٤) سورة الحجر: آية/ ٩.

أما السنة - المصدر الثاني للإسلام - فقد قيض الله تعالىٰ لها رجالًا قضوا أعمارهم في خدمتها، بأن فرقوا بين صحيحها وسقيمها، حتىٰ أصبح علم تحقيق السنة في الإسلام معجزة للمسلمين، ويضرب به المثل في منهجيته ودقته.

٥- أما الفصل بين الدين والدنيا فشيء غريب عن الإسلام مطلقًا.

فإن إخلاص العبادة لله تعالىٰ في الإسلام يقتضي الاعتقاد بوحدانية الله، كما يقتضي توجه الشعائر التعبدية لله وحده، كما يقتضي كذلك التصديق بكل ما جاء من عنده علىٰ لسان رسوله ﷺ والاحتكام إلىٰ شريعته وحدها دون الشرائع الجاهلية التي يضعها البشر من عند أنفسهم، فلا تمايز أو مفارقة بين أحكام الدين وأحكام الدنيا لأنها كلها من الله وحده، وهي لله وحده أيضًا وهو ما يطلق عليه في كتب العقيدة: إفراد الله تعالىٰ بأفعال المكلفين: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[1].

وظلت هذه الأمة الإسلامية قرونًا تعيش حياة يتوافق فيها الفكر مع السلوك وسائر جوانب الحياة المختلفة لا أثر فيها لشيء من الانفصال الشعوري، أو الفصل بين الشريعة والسياسة، أو بين الدين والدنيا علىٰ النحو الذي رأيناه في النصرانية.

نعم وقع في حياة الأمة الإسلامية أحيانًا بعض الانحرافات - لكنها انحرافات شخصية عملية، أملتها الأهواء والأطماع.

أما الشريعة ذاتها فقد ظلت سليمة محفوظة، وبقيت منهجًا ساميًا ثابتًا ترتقي إليه الأمة في فترات اليقظة والإصلاح، ولم يغب أبدًا عن حس الأمة بمجموعها أن تطبق الشريعة علىٰ واقعها، وإن تنظر للانحراف - وإن طال - علىٰ أنه انحراف، حتىٰ في أحلك العصور وأحرجها، كان ضمير الأمة يقظًا، وكان فيها علماء أفذاذ يصححون

---

(١) سورة الأنعام: آية/ ١٦٢-١٦٣.

المفهومات، ويردون المنحرفين إلىٰ الأصل الثابت الوضاء[1].

٦- أما السلطة الكهنوتية التي كانت تمارسها الكنيسة في أوروبا قبل الثورة الفرنسية فلا وجود لها في الإسلام شكلًا وموضوعًا.

والله تعالىٰ يقول: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠) ﴾[2].

وهذا هو الفارق الجوهري الأول في المسألة بين الإسلام والنصرانية المحرفة فوجود هيئة كهنوتية تشرع لخلق الله أمرًا ونهيًا في العقيدة أو السلوك هو شرك أكبر بالله تعالىٰ سواء أجاء ذلك في صورة مراسيم بابوية، أم قرارات مجمعية، أم منشورات كنسية[3].

والقاعدة المشهورة «كل يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ» قالها كثير من العلماء، وأتفق عليها الأئمة الأربعة وغيرهم.

٧- أما طبقة رجال الدين التي أحدثتها الكنيسة النصرانية فليس لها في الإسلام أصل، ولا يستعملها في الإسلام إلا مغرض مضل، أو ساذج مخدوع.

فالتصور الإسلامي أساسًا يرفض فكرة وجود أشخاص أو مجالات دنيوية لا علاقة لها بالدين، أو دينية لا علاقة لها بالحياة.

لقد صان الله تعالىٰ الإسلام من تلك الملابسات التي أدت إلىٰ وجود الطائفة الكهنوتية النصرانية، فلم يوجد مثل هذه الطائفة في واقع الحياة الإسلامية، كما أنه لم يوجد لها مبرر في العقيدة والتصور.

---

(١) انظر العلمانية: سفر الحوالي ص/ ٦٥٥.

(٢) سورة آل عمران: آية/ ٧٩ – ٨٠.

(٣) المصدر نفسه ص/ ٦٥٧.

والنتيجة الطبيعية لذلك هي أن الطغيان الديني، والاقتصادي والسياسي والفكري والعلمي لم يوجد، ولا يمكن أن يوجد بحال في دين الله، وتاريخ الإسلام خير شاهد علىٰ هذه الحقيقة.

ثم كيف تكون هناك نفرة بين العلم والدين، وحلقات ودروس الطب والفلك والرياضيات، بل الشعر والأدب، كلها تعقد في الجوامع جنبًا إلىٰ جنب مع حلقات الحديث، والفقه، والتفسير. والطبيب، والفلكي والرياضي يجلس جنبًا إلىٰ جنب مع الفقيه وكبير القضاة في مجلس الخليفة، والمراصد وبيوت الحكمة تغدق عليها الأموال من بيت مال المسلمين؟.

٨- بقي أن نقول: إن الخطيئة الموروثة التي أزعجت فولتير وباسكال بل أقلقت الضمير الأوروبي كله وأرقته طول تاريخه فإن للإسلام فيها كلمة قاطعة وصريحة.

فإن قصة آدم وأكله من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها كانت مزيلة بذكر التوبة من آدم وقبول الله تعالىٰ التوبة منه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[1].

هذا من جهة ومن جهة أخرىٰ فالإسلام يقرر ويؤكد حقيقة عظمىٰ وقاعدة جليلة في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[2]، فلا يؤخذ أحد بذنب غيره.

هذه الفروق الجوهرية بين الإسلام والديانة الكنيسة المحرفة، وبين تاريخه وتاريخها تعطينا إجابة قاطعة علىٰ السؤال الذي يطرح نفسه، هل لدعاة العلمانية ومروجيها في العالم الإسلامي من مبرر في نقل التجربة العلمانية من الغرب إلىٰ بلاد العرب والإسلام؟ بدعوىٰ أن الدين هو الدين، والظروف متشابهة؟.

---

(١) سورة البقرة: آية/ ٣٧.

(٢) سورة النجم: آية/ ٣٨-٣٩.

دعوى ثبات الشريعة وتطور الحياة:

وأخيرًا تجدر الإشارة إلىٰ شبهة كثيرًا ما يرددها الببغاوات في عالمنا الإسلامي وهي أن الشريعة ثابتة والحياة متطورة، والثابت لا يفي بمتطلبات المتطور، ومن ثَمَّ لا بد من إيجاد مصدر آخر للتشريع يعتمد علىٰ العلم العصري، والتجارب الإنسانية، مع الاحتفاظ للدين بدائرة التوجيه الروحي للأفراد وهذا هو حال العلمانية.

وهذه الشبهة كان يمكن أن تصدق لو صدق طرفاها وهما:

١- أن الشريعة ثابتة بمعنىٰ أنها أحكام جامدة لا تقبل المرونة، محدودة لا تقبل التوسع.

٢- أن الحياة البشرية متطورة بمعنىٰ أنها لا شيء فيها ثابت علىٰ الإطلاق، والواقع أن كلا الافتراضين باطلان تمامًا، وأن مصدر هذه الشبهة إنما هي اللوثة التي أصابت الفكر الأوروبي، فانتقلت من الإيمان بالثبات المطلق إلىٰ التطور المطلق، حتىٰ حسبت كل تغير تطورًا، وهذا تضليل ظاهر.

فإن التصور الإسلامي لا يقرر الثبات المطلق، ولا يؤمن بالتطور المطلق، بل ينفرد باعتبار قانون سير الحياة هو: الحركة داخل إطار ثابت، حول محور ثابت[1].

ونتيجة لذلك جاءت الشريعة حاكمة لكلا طرفي الحياة البشرية الثابت والمتغير، في إطار عام لا يشذ عنه شيء منها.

ولقد كان سلف الأمة يعون حقيقة تغير الحياة وتطورها تمام الوعي نتبين هذا من قولة عمر بن عبد العزيز المشهورة «يجدُّ للناس من الأقضية بقدر ما أحدثوا من فجور».

ونتبينها من عدول الإمام الشافعي - حين انتقل إلىٰ مصر - عن كثير من آرائه الفقهية التي استنبطها بالعراق حتىٰ أصبح له قولان، قديم وجديد، ونتبينها من القاعدة الأصولية أيضًا التي تنص علىٰ «تغير الأحكام بتغير الظروف والأزمنة والأحوال[2]» والله أعلم.

---

(١) خصائص التصور الإسلامي: سيد قطب ص/ ٨٦ والعلمانية المصدر نفسه ص/ ٦٩٣.

(٢) انظر إعلام الموقعين: الإمام ابن القيم ١/ ٣٤٦ - ٣٤٩.

الخلاصة

العلمانية حركة اجتماعية ذات مضمون فكري تسعىٰ لاستبعاد الدين عن الحياة، تربت وترعرعت في ظل ديانة نصرانية محرفة، وطغيان كنسي، وظلم سياسي، وحرمان اقتصادي، بشَّر بها فلاسفة ومفكرون غربيون منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، وظهرت إلىٰ الوجود بعد قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٨م وعلىٰ أساسها قامت النهضة الأوروبية الحديثة.

تسرب الفكر العلماني إلىٰ بلاد الإسلام عن طريق البعثات الدراسية إلىٰ بلاد الغرب، وكذلك بسبب التعاون في مجال التدريب العسكري بين الغرب والدولة العثمانية، كما كان لحملة نابليون بونا بارت الفرنسية علىٰ مصر عام ١٧٨٩م أثر فعال في نشر وفرض قيم العلمانية ومضامينها الفكرية والسلوكية في الشرق الإسلامي.

وعلىٰ أثر ذلك نشطت الدعوات إلىٰ علمنة الإسلام والاقتداء بالغرب في شتىٰ أرجاء أوطان العالم الإسلامي، ولعب النصارىٰ العرب دورًا كبيرًا في تعميق التوجهات العلمانية في المجتمعات الإسلامية.

ونحن عندما نقول بأن انتشار العلمانية في عالمنا الإسلامي كان بسبب تأثر أبنائنا بالغرب من خلال البعثات التعليمية أو التعاون في مجال التدريب العسكري، والأقليات النصرانية، والهجمات الاستعمارية علىٰ أوطاننا فإن ذلك كله لا يعفينا من الاعتراف بأن أسبابًا ذاتية كامنة في أنفسنا ومجتمعاتنا كان لها دور بارز لا ينبغي إغفاله ومن ذلك

ضعف الأمة بسبب بعدها عن دينها، وإغفالها للسنن الكونية في بناء الحضارة، والسير في دروب النهضة، والانبهار بما حققه الغرب من تطور وتقدم، ومحاولة تقليده والسير علىٰ نهجه من باب تقليد الضعيف للقوي.

ولا شك فإن ظهور العلمانية في الغرب والفصل بين الدين والحياة كان له ما يبرره من فساد العقيدة وتحريف الديانة والظلم الذي كان يمارسه الأقوياء علىٰ الضعفاء في البيئات الغربية، فإن هذه الظروف والشروط التاريخية ليس لها نظير في الإسلام، فعقيدة الأمة ومصادرها التشريعية لم يعتريهما تحريف أو تبديل، ولم يكن لعلماء الدين سلطة طاغية في تاريخ الإسلام، فلا واسطة بين الناس وربهم، لا أسرار ولا احتكار لتفسير الدين، لذلك فليس لدعاة العلمانية في بلاد الإسلام حجة في نقل تجربة الغرب العلمانية إلىٰ عالمنا الإسلامي، والله المستعان.

مراجع مختارة

١- الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه د. يوسف القرضاوي، دار الصحوة القاهرة ط٢ ١٤١٤ - ١٩٩٤.

٢- حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب د. يحي هاشم فرغل، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر، دار الصابوني للطباعة.

٣- العلمانية د. سفر الحوالي ط١ مؤسسة غرناطة ١٤٠٢ - ١٩٨٢ م.

٤- العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق د. محمد البهي طبعة القاهرة ١٩٧٦م.

٥- العلمانيون والقرآن الكريم د. أحمد إدريس الطعان ط١ دار ابن حزم الرياض ١٤٢٨ - ٢٠٠٧ م الرياض.

٦- العلمانيون والإسلام، محمد قطب دار الشروق القاهرة ط١، ١٤١٤ - ١٩٩٤ م.

٧- العلمانية وموقف الإسلام منها، عزت عبد المجيد أبو بركة، رسالة ماجستير أصول الدين الأزهر.

٨- العلمانية وموقفها من العقيدة والشريعة د. عبد العظيم المطعني، مكتبة النور القاهرة ١٩٩٢م.

الفصل الثامن

الليبرالية

يشتمل الفصل على:

تمهيد.

المبحث الأول:

الجذور التاريخية للنزعة الليبرالية في الفكر الأوروبي.

المبحث الثاني:

مجالات الليبرالية

المبحث الثالث:

الحرية والعقلانية في النسق الليبرالي.

المبحث الرابع:

مراحل تطور الليبرالية العربية

المبحث الخامس:

موقف الليبرالية من الثوابت

المبحث السادس:

موقف الإسلام من الليبرالية

الخلاصة.

مراجع مختارة.

تمهيد

١ - مفهوم الليبرالية:

عاشت أوروبا أسوأ عصورها فيما كان يطلق عليه القرون الوسطىٰ[1] - حيث كان الأوروبيون يحيون حياة الاستعباد لغير الله بأوجهه المختلفة.

فقد عاش الناس في ظل «عبودية دينية» يخضعون فيها للأرباب المختلفين من الأحبار والرهبان، الذين كانوا يعبِّدون الناس لأهوائهم، وشهواتهم، و «عبودية سياسية» للملوك والأباطرة، الذين يتحكمون في المصائر، ويتصرفون في الرعية كأملاك مسخَّرة.

كما عاشت تلك الشعوب حياة «عبودية اقتصادية» لملاك الأراضي، والإقطاعيين، والنبلاء الذين كانوا يملكون الأرض ومن عليها من البشر، وكان التعامل مع هؤلاء الفقراء تعامل السادة مع العبيد.

وفي تلك الأثناء - من ظروف الاستعباد - حاول فريق من المفكرين الناقدين تحرير الإنسان من الظلم والطغيان، عرفوا بالأحرار، أو أصحاب المذهب الحر، أو مذهب الحرية. إلا أنه طيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانت الحرية (أو

(١) بدأت القرون الوسطىٰ (عصر التخلف، والانحطاط) في أوروبا مع نهاية الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي واستمرت حتىٰ نهاية القرن الخامس عشر، حيث بدأ عصر النهضة مع الكشوف الجغرافية، وحركات الإصلاح الديني (البروتستانتية).

التحرر) تستعمل في هذا السياق مبدأً فضفاضًا بمعنىٰ التحرر من الاستعباد العام.

وفي الحقيقة أنه حتىٰ نهاية القرن الثامن عشر لم يكن لفظ «الليبرالية» متداولًا، بل كان الكلمة الشائعة هي «ليبرال Liberal» التي قصد بها وقتئذ الشخص المتحرر فكريًا، وهي كلمة ترجع في أصل اشتقاقها اللغوي إلىٰ اللفظ اللاتيني «ليبراليس» الذي يعني «الشخص الكريم، النبيل، الحر» وهو المعنىٰ الذي سيكون مرتكز البناء الدلالي للمفهوم الاصطلاحي لاحقًا[1].

٢ - التعريف الاصطلاحي لليبرالية:

ليس من السهل وضع تعريف محدد لليبرالية بسبب اختلاف مفهومها من فيلسوف لأخر، ومن جيل إلىٰ جيل، ومن هنا تعددت تعريفاتها وتنوعت، ورغم هذا الاختلاف فإن لليبرالية جوهرًا يتفق عليه جميع الليبراليين في كافة العصور، مع اختلاف توجهاتهم، وأسلوب تطبيقاتهم كوسيلة من وسائل الإصلاح السياسي والاجتماعي، والاقتصادي... الخ، وهو أن جوهر الليبرالية ينزع إلىٰ المادية، والفردية، والتحرر من كل القيود أو الثوابت، وأما مجالاتها فتبع للحاجة الليبرالية؛ بحيث تشمل مختلف مجالات الكينونة الإنسانية.

فمن الناحية الفكرية تعني «حرية» الاعتقاد، والتفكير، والتعبير، ومن الناحية الاقتصادية تعني «حرية» الملكية الشخصية، وحرية الفعل الاقتصادي المنتظم وفق قانون «السوق» وعلىٰ المستوىٰ السياسي تعني حرية التجمع، وتأسيس الأحزاب، واختيار السلطة[2]... وهكذا.

ويمكن أن نتعرف أكثر علىٰ حقيقة المصطلح من خلاله تعريفات فلاسفتها ودعاتها، فهم أعرف الناس بحقيقتها ومن هؤلاء:

---

(١) انظر نقد الليبرالية د. الطيب بوعزة ص/ ١٨.

(٢) الليبرالية إشكالية مفهوم د. ياسر قنصوة ص/ ٩ و د. الطيب بو عزة المصدر نفسه ص/ ٢١.

المفكر الإنجليزي توماس هوبز (١٥٨٨- ١٦٧٩م) بأنها غياب العوائق الخارجية التي تحد من قدرة الإنسان على أن يفعل ما يشاء[١].

وعرفها الفيلسوف السويسري جان جاك روسو (١٧١٢- ١٧٧٨م) بأنها الحرية الحقة في أن نطيع القوانين التي اشترعنا لأنفسنا.

والحرية بهذا السياق تعني رفضًا لكل ما يفرض على الفرد من خارج ذاته سواءً كان دولة، أو دينًا، أو مجتمعًا - كما سيأتي تفصيله لا حقًا -.

ولا تبعد تعريفات الموسوعات الأجنبية والعربية عن المعنى العام للتعريفات السابقة.

فقد عرفت موسوعة (لا لاند) الليبرالية في معناها العام بأنها: «الاستقلال عن المؤثرات الخارجية، وهي أنواع: ليبرالية مادية، وليبرالية مدنية، وليبرالية سياسية، وليبرالية نفسية، وليبرالية دينية[٢].

وأما موسوعة (المورد العربية) فقد عرفت الليبرالية بأنها: معارضة المؤسسات السياسية والدينية التي تحد من الحرية الفردية، وهي تطالب بحق الفرد في حرية التعبير وتكافؤ الفرص[٣].

وجاء في موسوعة (ويكيبيديا) الإلكترونية وصف مفصَّل لليبرالية بأنها: حركة وعي اجتماعي، وسياسي، داخل المجتمع، تهدف لتحرير الإنسان فردًا وجماعة من القيود الأربعة (السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية). واعتراض الليبرالية على

(١) انظر هذه التعريفات وغيرها في سلسلة تراث الإنسانية ٤/ ٣٧٤ عن معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية د. عبد العزيز مصطفى كامل ص/ ٣٣ بتصرف، وانظر أيضًا الطيب بو عزة، المصدر السابق ص/ ١٩.

(٢) موسوعة لا لاند الفلسفية ٢/ ٧٢٦.

(٣) الموسوعة الفلسفية العربية، ٢/ ١١٥٦.

تدخل الدين في الأمور الشخصية بوجه عام، يجعلها مقاربة للعلمانية بشكل كبير، فقد جاء في الموسوعة: أن الليبرالية تعتمد فهم الدين بشكل أفضل، فلكل شخص حرية الأفعال والأقوال ما لم يتعرض للأشخاص الآخرين، أو يجبرهم علىٰ أفعال معينة، فالليبرالي يرىٰ أنه يحق له أن يتعبد بالطريقة التي يريد طالما أنها لا تسبب للآخرين أذىٰ، ولا يرىٰ أن أحدًا يملك مقاضاته، أو محاسبته علىٰ ذلك، إذا لم يكن فيما فعله أي تجاوز علىٰ الحقوق الشخصية أو الدستور[1].

ويلخص أحد كبار دعاة الليبرالية حقيقتها بقوله: الحرية الليبرالية في جوهرها هي: إطلاق العنان للناس ليحققوا خيرهم بالطرق التي يرونها، طالما لا يحاولون حرمان الغير من مصالحهم، أو لا يعوقون جهودهم لتحقيق تلك المصالح، فكل فرد يعد أصلح رقيب علىٰ ثروته الخاصة، سواء كانت هذه الثروة جسمانية، أم فكرية، أم روحية[2].

ويصف المفكر (مارنيت) وظيفة الليبرالية والأساس الذي تقوم عليه بأنها تثبيت الحق الطبيعي في مواجهة الحق الإلهي «أي أن كل إنسان يقرر مصالحه وفق رؤيته الخاصة بنفسه مقابل الدين الإلهي، وما فيه من أوامر ونواهي ومعتقدات.

---

(١) **www.wikipedia.org** عن عبد العزيز مصطفىٰ كامل مصدر سابق ص/ ٣٥.

(٢) عن الحرية لجون ستيوارث مل ص/ ٨٧، وهو ما يدندن حوله أدعياء الليبرالية في بلاد المسلمين كقولهم: بأنهم لا يذعنون إلا للنص المقدس، وليس لتفسير البشر لتلك النصوص سواء كانوا أصحاب رسول الله ﷺ أو غيرهم من العلماء المجتهدين، وينادون بقراءة جديدة لنصوص القرآن والسنة، تتفق مع توجهاتهم الفكرية، وهم لا يجرؤون علىٰ الإفصاح برفض تعاليم الدين صراحة مجاملة لعامة الناس، أو لظروف البيئة المحيطة.

المبحث الأول

الجذور التاريخية للنزعة الليبرالية في الفكر الأوروبي

إذا كانت الليبرالية تقوم علىٰ أساسين رئيسين: الفردية والحرية - كما سبق - فإن هذا يتطلب منا البحث في الجذور التاريخية لهذين العنصرين المكونين لليبرالية حتىٰ نقف علىٰ طبيعتها وحقيقة منطلقاتها الفكرية.

يذهب كثير من الباحثين إلىٰ أن الليبرالية تأثرت إلىٰ حد كبير بالفردية التي عرفت في الفلسفة اليونانية، كما أنها تأثرت بالدعوة إلىٰ التحرر والانعتاق من تسلط الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر، والتي أفرزت ما سمي بحركة الإصلاح الديني البروتستانتية.

ولا ننس ما ذكره الباحثون من أثر واضح لليهودية علىٰ حركة الإصلاح الديني نفسها، وإليك إيضاح موجز لهذه المؤثرات المكونة لليبرالية بما يتناسب مع طبيعة هذه الدراسة المختصرة.

المطلب الأول: الفردية في الفلسفة اليونانية

تعتبر الفلسفة اليونانية إحدىٰ الروافد المهمة للتيارات الفكرية الغربية، باعتبار أن الحضارة الغربية تعد الوريث الطبيعي للفلسفة الإغريقية واليونانية والرومانية بكل ما فيها.

والسوفسطائية إحدىٰ المدارس الفلسفية اليونانية التي لعبت دورًا مهمًا في

تاريخ الفكر الفلسفي الغربي، ويعتبر السوفسطائيون أول من وجه الفكر باتجاه عالم الإنسان الرحب، حيث يكون الإنسان لا الطبيعة موضع النظر الجديد بالانتباه، وأن تكون قضاياه أو مصيره مبعث التفكير والجدل، وصار الإنسان - الفرد - في نظر السوفسطائيين موضع اهتمام من قبل الرؤىٰ والنظريات والمذاهب الفلسفية، ولم يكتف المذهب السوفسطائي بجعل الإنسان مقياسًا للخير والشر، بل انتقد فكرة القانون باعتباره من اختراع البشر[1].

ومن أوائل فلاسفة المذهب السوفسطائي - بروتاجوارس (٤٨١-٤١١ق م) الذي نقلت عنه مقولته المشهورة: الإنسان معيار الأشياء جميعًا، مؤكدًا أن البحث الملائم لدراسة النوع البشري هو الإنسان نفسه[2].

ومع أنه السوفسطائيين وأفلاطون ينتمون إلىٰ المجتمع الأثيني (نسبة إلىٰ أثينا اليونانية) - إلا أن أفلاطون الذي أبدع ما يسمىٰ بالمدينة الفاضلة - الدولة، ومن خلالها أوجد ثنائية الفرد، الدولة - أي ليس للفرد كيان مستقل، وما انبثق عنها من ازدواجية الأخلاقي العملي، أو النفعي في صورته المثالية - لقي معارضة من أتباع المدرسة السوفسطائية التي أطلقت العنان للفردية بمعنىٰ «الأنانية» لتؤكد ذاتيتها. ومن هؤلاء الفلاسفة السوفسطائيين: تراسيما خوس أنتيغون، تيلو فرون، أكسيد أملس، وكليكليس.

وقد أكدوا أن المدينة الفاضلة، الدولة، ليست وسيلة حماية لكي يتمتع الإنسان بطبيعته (أنانيته)، فما هو طبيعي لديهم هو الأنا المعبرة عن ذاتنا بدون عوائق[3].

---

(١) انظر تاريخ الفلسفة اليونانية يوسف كرم ص/ ٥٣.

(٢) تطور الفكر السياسي، جورج سباين، الكتاب الأول ترجمة حسن جمال الدوسي دار المعارف ١٩٧١/ ص/ ٣٢.

(٣) الليبرالية إشكالية مفهوم ص/ ٢٩ بتصرف.

أما سقراط[1] (٤٩٦ - ٣٩٩ ق م) فقد كان حكيما، نفعيًا وأحد مكتشفي الذات الفردية، وقد جاء اهتمامه بالفرد ليعبر بمفهومه الخاص عن الإنسانية جمعاء، من أجل صياغة منهج عقلي، يمثل خير الإنسانية بما يقدمه من مفاهيم وتعريفات محدودة، وصار شعار النزعة الفردية عند سقراط: أعرف نفسك بنفسك أي أعرف نفسك معرفة حقيقية.... أعرف بنفس المعرفة مبرر وجودها وغايتها... الخ[2].

ومن المهم أن نذكر هنا أن الليبرالية رغم كمونها بصورة ما في النزوع الفردي عند السوفسطائيين، سقراط إلا أننا لا نستطيع علىٰ وجه الدقة أن نحدد ملامح هذه الليبرالية وفقًا للتوجه الليبرالي الحديث، وإن كانت تمثل شذرات ليبرالية تمنحنا نسبيًا إشارات موحية. برؤية خاصة للفردية[3]، وقد كان لـ(جون لوك ١٦٣٢-١٧٠٤م) فيما بعد فضل في تأسيس هذه الرؤية وتعميقها[4].

---

(١) فيلسوف يوناني يمكن أن يعد أحد السوفسطائيين في مقابل «أفلاطون وأرسطو» اللذين يعتبران من أصحاب نظرية المدينة الفاضلة، الدولة التي - في نظرهما - هي الأصل الجوهر - وكل ما عداها - الأفراد - مجرد عرض، وهي دعوة صريحة إلىٰ ذوبان الفرد في إطار الجماعة انظر المدارس الفلسفية اليونانية قبل أرسطو د. عبد المعبود مصطفىٰ سالم ص/ ٢٣٧ مطبعة الأمانة مصر، ط١ الأولىٰ ١٤٠٨ - ١٩٨٧م.

(٢) تاريخ الفكر السياسي جان جاك شوفالية، ترجمة د. محمد عرب صاصيلا بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ١٩٨٥ ص/ ١٦ وانظر الليبرالية إشكالية مفهوم ص/ ٣٢ - ٣٣.

(٣) نفس المصدر ص/ ٣٤ وأيضًا العولمة النيوليبرالية وخيارات المستقبل ص/ ٣٦.

(٤) انظر نقد الليبرالية د. الخطيب بو عزة ص/ ٣٤.

المطلب الثاني: حركة الإصلاح الديني (البروتستانتية)[1]

ظهرت في أوائل القرن السادس عشر الميلادي بوادر انشقاق جديد بين أتباع الديانة النصرانية تمثل في حركة احتجاج ديني على مسلك الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا، حيث بلغت هذه الكنيسة غاية التعصب والانغلاق الممزوج بالانتهازية والنفعية، وأكل أموال الناس بالباطل[2].

وكانت الحريات هي الضحية الأولى لهذا الفساد الكنسي المستشري؛ حرية الفكر، حرية الاعتقاد، حرية الاختيار والتمثيل السياسي، حرية التملك والتصرف الاقتصادي، بل حرية النظر العلمي والبحث التجريبي.

وكان على رأس هذه الحركة الاحتجاجية مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦ م)[3]، وقد دعا لوثر إلى العودة بالنصرانية إلى أصولها القديمة، أي إلى المرحلة التي كانت التوراة فيها هي الأصل في ديانة النصارى، ويضاف إليها الإنجيل بما فيه من زيادات على التوراة حيث إنه مكمل لها، لا ناسخًا لأصولها.

وقد أطلق على هذه الحركة فيما بعد (حركة الإصلاح الديني)، والتي عرفت بعد ذلك باسم (البروتستانت). ولم يكن هذا الاحتجاج على الكنيسة الكاثوليكية في بلد واحد، بل كان هناك محتجون في سويسرا يتزعمهم السويسري (آلريخ زونجلي)

---

(١) البروتستانتية حركة إصلاحية معروفة في أوروبا، والكلمة لاتينية معناها المحتج، وقد استخدمت لأول مرة عام ١٥٢٩ حيث احتج بعض الألمان على محاولة الكنيسة الكاثوليكية الحدَّ من نشاط اللوثريين. ثم أطلق الاسم بعد ذلك على جميع الطوائف والفرق النصرانية التي اختلفت مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وخرجت عليها، وهي مذهب عدد من الدول بما في ذلك الدنمارك وبريطانيا والنرويج والسويد.. انظر الموسوعة العربية العالمية ٤/ ٣٧٦، ط٢، مؤسسة أعمال الموسوعة، الرياض ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م.

(٢) انظر تفصيل أوضاع الكنيسة وقتئذ في مبحث العلمانية ص ٧٣/ من هذه الدراسة.

(٣) ألماني أستاذ اللاهوت والراهب.

(١٤٨٤ - ١٥٣١م) وآخرون في فرنسا ويتزعمهم (جون كالفن) ١٥٠٩ - ١٥٦٤م)[١] ولكن أشهر حركات الاحتجاج وأقواها وأقدمها كانت في ألمانيا وكان زعيمها (مارتن لوثر)[٢]، وكانت بداية احتجاجه واعتراضه ضد مسألة (صكوك الغفران) التي كان رجال الدين يبيعون من خلالها أماكن في الجنة للتائبين علىٰ أيديهم، وأعقب هذا الاحتجاج قرار من البابا بتكفير (لوثر) وحرمانه، ولكن مع كثرة أتباعه وأنصار حركته تطورت حركة الاحتجاج، وتناول (لوثر) في احتجاجه مجالات فساد أخرىٰ في الكنيسة الكاثوليكية كالعشاء الرباني (وهو ما يسمىٰ بالاستحالة)، ودعوىٰ محاربة الهرطقة[٣]، والتثليث، وتوريث الخطيئة والصلب والفداء.... الخ.

وقد أوغل المذهب البروتستانتي في التحرر أو في التحلل من قيود الكنيسة الكاثوليكية محطمًا رموزها، ومبعث قوتها وهي المؤسسة الكنسية حتىٰ أصبحت فكرة (التحرر) أو إن شئت (التمرد) جزءًا من الديانة البروتستانتية، وهو ما كرسه بعد ذلك الإنجليز الذين حملوا بقوة هذا المذهب، وحمله بعدهم الأمريكيون.

إن قضية التحرر من آثار الانحراف والتحريف الديني، هي القضية التي تفرعت عنها فيما بعد قضايا التحرر السياسي، والتحرر الاقتصادي، والتحرر الثقافي، وهو ما جمع فيما بعد في لفظ (ليبرال)، أي (التحرر)، لهذا يذهب أكثر الباحثين إلىٰ أن أصول الليبرالية وجذورها لاسيما قضية الحرية ترجع إلىٰ مبادئ (حركة الإصلاح الديني)

---

(١) ساعد علىٰ تأسيس البروتستانتية في جنيف وسويسرا ووجه جهوده لتحويل الفرنسيين ومواطني الدول الأخرىٰ في أوروبا الغربية إلىٰ البروتستانتية. انظر الموسوعة العربية العالمية ٢/ ٢٥١.

(٢) انظر معركة الثوابت ص/ ٤٧.

(٣) الهرطقة هي مخالفة رأي الكنيسة، فما يراه عالم في العلوم الكونية مخالفًا للكنيسة هرطقة.. ومحاولة فهم الكتاب المقدس لرجل غير كنسي هرطقة، وانتقاد شيء يتصل بالكنيسة هرطقة، وهي تعني الكفر والزندقة، وقد استعملت الكنيسة القتل والحرق ومحاكم التفتيش حيال هؤلاء الهراطقة وانظر المسيحية، د. أحمد شلبي ص/ ٢٥٦.

التي أثمرت المذهب البروتستانتي، والذي يكاد يجمع الباحثون علىٰ علاقته الوثيقة بالفكر الليبرالي[1].

ونحن عندما نتحدث عن حركة الإصلاح الديني (البروتستانتية)، ودورها في نشر ثقافة الحرية لدىٰ الشعوب الغربية ينبغي أن لا نغفل الدور الذي حققه الإسلام في إشاعة روح الوعي، والتطلع نحو الحرية، والتمرد علىٰ خرافات الاكليروس، وتسلط رجال الكنيسة في الغرب، وذلك من خلال احتكاك المسلمين بالغربيين في الأندلس، وصقلية وغيرها، بل من خلال البعثات الطلابية الأوربية إلىٰ حاضرات المدن الإسلامية الكبرىٰ كالقاهرة، ودمشق، وبغداد وغيرها لطلب العلم، ونقل حضارة الإسلام إلىٰ البلدان الأوروبية التي كانت ترزح تحت نير الجهل والتخلف.

ويؤكد المؤرخون الغربيون المنصفون أن دخول الإسلام أوروبا في بداية العصور المتوسطة، ونهاية العصور القديمة كان سببًا في تحرير الفرد من قيود الاكليروس وهيمنة الكنيسة بخرافاتها.

وقد أشار إلىٰ هذا المعنىٰ (هنري بيرن) المؤرخ الفرنسي المعاصر في كتابه باللغة الإنجليزية (محمد وشارلمان) حيث ذكر المؤلف بإنصاف ونزاهة أن الإسلام كان هو القوة الهائلة التي حولت مجرىٰ التاريخ الأوروبي إلىٰ الحد الذي يمكن أن يقال معه بأن العصر الوسيط والنهضة هما ثمرتان من ثمرات ظهور الإسلام[2].

---

(١) انظر معركة الثوابت ص/ ٤٩ – ٥٠ وأيضًا العولمة النيوليبرالية وخيار المستقبل ص/ ٤٧ وأيضًا د. الطيب بوعزة المصدر السابق ص/ ٣٢.

(٢) انظر مجلة الفتح السيد محب الدين الخطيب نقلاً عن الإسلام والغرب، أنور الجندي ص/ ١١٠.

المطلب الثالث: الاختراق اليهودي للحركة الإصلاحية

إن المتتبع لحركة الإصلاح الديني يلحظ بشكل ملفت كيف أن هذه الحركة قد جمعت شتات المسلمات اليهودية لتحل محل العقيدة النصرانية، مع إضفاء نكهة تلمودية، ومن هذه العقائد: عدم الوساطة في العبادة، وشعب الله المختار، وانتظار المسيح المخلص، وأرض الميعاد، والبقرة المقدسة، وعودة شعب إسرائيل إلىٰ الأرض المقدسة في آخر الزمان، وإعادة بناء الهيكل، وحرب الهرمجدُّون، وغير ذلك ليكون المذهب البروتستانتي أقرب إلىٰ نصرانية متهودة، أو يهودية متنصرة.

لقد كان من المسائل الهامة التي بدأ بها (مارتن لوثر) حركته الاجتماعية الاعتراض علىٰ اضطهاد الكنيسة لليهود الذين كان يصفهم دائمًا بـ(أبناء الله)، وينسب إليهم الخصائص التي ليست لغيرهم بوصفهم الشعب المختار الذي أنزلت عليه كل الأسفار، وأسندت إليه مهمة القيام بتنفيذ ما أسماه (خطة الإله لتغيير العالم).

وقد أتهم مارتن لوثر الكاثوليك بأنهم يتسببون من خلال اضطهادهم لليهود في تعطيل خطة الإله التي ستنتهي بعودة المسيح إلىٰ الأرض، وحكم العالم من فلسطين، بعد أن يعود إليها اليهود، فعودتهم تلك إلىٰ فلسطين هي الطريق الوحيد إلىٰ عودة المسيح إلىٰ الأرض.

وقد بالغ مارتن لوثر في البداية في دفاعه عن اليهود حتىٰ إنه أرجع إليهم الفضل في نشأة النصرانية نفسها، وقد ألف كتابًا في هذا الموضوع صدر عام ١٥٢٣م وهو أول مؤلفاته وعنوانه (المسيح ولد يهوديًا)، وأعيد طبعه سبع مرات في عامه الأول[(١)]، وقال لوثر في كتابه المذكور: شاءت إرادة الله أن تنزل كل الأسفار المقدسة للعالم عن طريق اليهود، إنهم أبناء الله، ونحن الضيوف والغرباء.

---

(١) انظر معركة الثوابت ص/ ٥١ بتصرف.

كانت هذه المبالغة في الاحتفاء باليهود سببًا في ذهاب بعض الباحثين إلىٰ أن (مارتن لوثر) نفسه كان من طائفة (المارانو)[1]، وقد استندوا إلىٰ أنه وصل إلىٰ منصبه عن طريق الرشا والمال كغيره ممن وصل إلىٰ تلك المناصب.

لكن مارتن لوثر عاد وانقلب علىٰ اليهود وألف كتابًا سماه (أكاذيب اليهود)، غير أنه لم يتخلَّ عن دعوته لإعادتهم إلىٰ وطنهم فلسطين، للتخلص منهم من ناحية، ولأن المسيح لن يأتي إلا بعد عودتهم إلىٰ فلسطين من ناحية أخرىٰ[2].

وعلىٰ كل حال فقد واصلت هذه الدعوة الإصلاحية (البروتستانتية) تتطور وتتفاعل علىٰ امتداد القرون الثلاثة التالية: حتىٰ بلغت ذروتها بنجاح البروتستانت الإنجليز في إيصال اليهود إلىٰ فلسطين، وإقامة دولة لهم (بدءًا بوعد بلفور المشؤوم عام ١٩١٧م)[3]. ومحمية من الولايات المتحدة البروتستانتية أيضًا، كما أن (المسيحية الصهيونية الحديثة) قد خرجت من رحم البروتستانتية وتبنت العقائد الغيبية اليهودية، وبدأت في تحويلها من عقائد نظرية إلىٰ وقائع عملية في عودة اليهود إلىٰ فلسطين، وإقامة الدولة اليهودية فيها، وعاصمتها القدس ويمثلها المحافظون الجدد في الإدارة الأمريكية التي شنت حربًا ضروسًا علىٰ العالم الإسلامي باسم الحرب علىٰ الإرهاب.

---

(١) وهي طائفة يهودية أظهرت الدخول في النصرانية إبان محاكم التفتيش في الأندلس مع نهاية الحكم الإسلامي فيها - مع الاحتفاظ بعقيدتهم اليهودية، وهم الذين عرفوا باسم (المارانو) أي المتخفون، وقد فضل هؤلاء البقاء في الأندلس لدنياهم، مع تخليهم الشكلي عن دينهم، وبدأوا يتأقلمون مع صورتهم الجديدة في المجتمع، وقد استطاع كثير من أفراد هذه الطائفة شراء المناصب الكنسية بالمال، انظر عبد العزيز كامل، مصدر سابق ص/ ٥٤.

(٢) انظر في ذلك موسوعة اليهود واليهودية د. عبد الوهاب المسيري ٣/ ١٣ عن عبد العزيز مصطفىٰ كامل مصدر سابق ص/ ٥٤.

(٣) بلفور وزير الخارجية البريطاني والذي وعد اليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين.

المبحث الثاني

مجالات الليبرالية

تتعدد مجالات الليبرالية بحسب النشاط البشري وذلك لأن الليبرالية مفهوم شمولي يتعلق بإرادة الإنسان وحريته في تحقيق ما يريد، فكل نشاط بشري يمكن أن يكون داخلًا في مجال الليبرالية، ومن هنا تعددت وجوهها ومن أبرزها:

الليبرالية الدينية والفكرية، والليبرالية الاجتماعية، والليبرالية السياسية، والليبرالية الاقتصادية... الخ.

المطلب الأول: الليبرالية الفكرية والدينية

ظهرت الليبرالية الفكرية والدينية كرد فعل علىٰ الفساد الكنسي، فكانت البداية هي رفض الوساطة بين الخالق والمخلوق - وهذا شيء حسن - ولكن تطور الأمر عند (كانط الفرنسي) إلىٰ القول بأن رؤية الناس للشيء علىٰ أنه هو الصواب، لا يعني بالضرورة أنه صواب، وأن النظر إلىٰ ذات الفكر - بما فيه فكر الكنيسة - علىٰ أنه يمثل الحق، لا يعني في كل حال أنه يمثل الحقيقة، لأن رؤية الإنسان للشيء تتأثر بمنظومته الفكرية، وتجربته الحياتية.

ثم جاء (جون هيك)[1] المعاصر لكانط ليبني نظريته في التعددية علىٰ أن الحقيقة

(١) أستاذ جامعي بريطاني معاصر في علم اللاهوت في جامعة برمنجهام في انجلترا.

المطلقة لا يملكها منهج بذاته أو دين بذاته - كما قال كانط -، وعليه فإن الحقيقة يمكن أن توجد موزعة علىٰ كل الأديان.

وذهب إلىٰ أن الوحي تجربة شخصية روحية، وبالتالي فإنه يمكن أن تتعدد مصادر الحقيقة بتعدد الأديان. وبنىٰ (جون هيك) علىٰ ذلك أن الالتزام بالشرائع الدينية غير ضروري خارج النطاق الشخصي، لأن الشرائع كلها نسبية في صحتها، وإن كانت تكفي لإشباع الحاجة الدينية عند الإنسان علىٰ المستوىٰ الشخصي[(١)].

وجاء في موسوعة (لا لاند الفلسفية) تعريف الليبرالية الفكرية والاعتقادية بأنها: (مذهب فلسفي يرىٰ أن الاجتماع الديني ليس شرطًا ضروريًا لتنظيم اجتماعي جيد)[(٢)]، ويطالب بحرية الفكر والعقيدة لكل الناس، وقد عرفها بعض الليبراليين بقوله: هي المدىٰ الذي يستطيع الإنسان أن يصل إليه في أداء فعل معيَّن، وفقًا لإرادته الخاصة[(٣)].

لذلك فإن وصف الليبرالية بأنها (دينية) لا ينفي عنها صفة العلمانية التي تقوم علىٰ عزل العقائد والشرائع عن نظام الحياة، وإبقائها محصورة في الإطار الشخصي والروحي فحسب.

وقد تبنت الولايات المتحدة الأمريكية فكرة تعميم مفاهيم الليبرالية الدينية واعتبرتها جزءًا من حربها علىٰ العالم الإسلامي، والهدف ليس احترام العقائد بقدر ما هو ازدراء العقيدة الإسلامية، وتشجيع الخروج عليها، والارتداد عنها، حتىٰ صارت أمريكا وبريطانيا حامية لكل الزنادقة والملحدين في العالم الإسلامي، لتتخذ منهم رأس حربة في حربها ضد الإسلام نفسه، وقد شهدت السنوات الأخيرة عددًا من

(١) معركة الثوابت، عبد العزيز مصطفىٰ كامل ص/ ٩٤.

(٢) ٢/ ٧٢٦.

(٣) مفهوم الحرية في الليبرالية المعاصرة، ياسر قنصوة ص/ ٣٦.

الظواهر والمظاهر التي تترجم عن سوء توظيف مفاهيم (الليبرالية الدينية) التي تعد الوجه الاعتقادي للمنظومة الليبرالية.

١- فباسم الليبرالية الدينية والفكرية باركت الولايات المتحدة الرسوم المسيئة للنبي ﷺ في إحدىٰ الصحف الدنماركية مع أن دبلوماسييها لا يتسامحون إذا كان الأمر يتعلق بقضايا اليهود الدينية، أو بالسامية، (كما حدث مع المفكر الفرنسي روجيه جارودي عندما شكك في تهويل قصة الهولوكوست في ألمانيا النازية).

٢- وباسم الليبرالية الدينية وقفت الولايات المتحدة مع المرتد الأفغاني عبد الرحمن عبد المنان ودافعت عنه.

٣- وقبل ذلك وقوف بريطانيا بجانب سلمان رشدي المرتد، وتأمين الحماية الكاملة له من أن تطاله محاكمة أو مساءلة علىٰ إساءته لعقيدة الأمة ومقدساتها.

المطلب الثاني: الليبرالية الاجتماعية

لقد كشف الغرب في الآونة الأخيرة عن مفاهيم الليبرالية الاجتماعية تحت شعار (الانفتاح القيمي) مطالبًا في الوقت نفسه بتهميش المنطلقات القيمية في المجتمعات الإسلامية في محاولة لإقصائها أو إضعافها.

ويرىٰ الليبراليون في مجتمعاتنا أن الموضوعات المتعلقة بالأسرة، والمرأة، والأخلاق، والتقاليد، والروابط الاجتماعية، لابد أن (يُرقىٰ بها إلىٰ المستوىٰ الموجود في الغرب. ويقولون بالحرية المطلقة في العلاقات الاجتماعية علىٰ مستوىٰ المجتمع، والأسرة، والفرد، وفق مبدأ التسامح تحت شعار (دعني أفعل ما أشاء، وسأدعك تفعل ما تريد)[1].

(١) وقد عقدت مؤتمرات دولية لتحقيق هذا الهدف ومن أبرز هذه المؤتمرات التي عقدتها الأمم المتحدة =

وهذه هي الليبرالية الاجتماعية التي بشربها (جون ملتون ١٦٠٨-١٦٧٤م) و (جون لوك ١٦٣٢-١٧٠٤م)، وهي ترمي إلىٰ أن لكل فرد في المجتمع أن يتمتع ويفعل ما يريد طالما أنه لا يتعدىٰ ذلك إلىٰ ضرر الآخرين. وهذا إلغاء صريح لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام والتي هي من أسباب الخيرية لهذه الأمة علىٰ غيرها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

المطلب الثالث: الليبرالية السياسية والاقتصادية

أما الليبرالية السياسية: فمع القول بقدم مصطلح (ليبرال) - كما سبق - غير أن الليبرالية السياسية بصفتها نظرية وأسلوبًا في الحكم لم تتضح معالمها إلا في بداية القرن التاسع عشر، ومن أهم أسسها السياسية:

١- الفصل بين السلطات التشريعية والقضائية، والتنفيذية، وقد دعا إلىٰ ذلك الحقوقي الفرنسي (بنيامين كونستانت عام ١٨١٩م) لضمان الحريات العامة.

٢- مبدأ حكم الشعب بالشعب، الذي يعد جوهر الليبرالية السياسية، وهو ما يطلق عليه (الديمقراطية).

=- المؤتمر العالمي الرابع للمرأة في بكين في الصين عام (١٩٩٥م - ١٤١٦ هـ) والمؤتمر الدولي للسكان والتنمية في القاهرة عام (١٩٩٤ - ١٤١٥ هـ) ومما ركزت عليه هذه المؤتمرات: مساواة المرأة بالرجل، الحرية الجنسية، العمل علىٰ نشر منع الحمل، والتعليم المختلط، وتقديم الثقافة الجنسية في وقت مبكر للجنسين، وتقديم الخدمات الصحية التناسلية الجنسية.... الخ، انظر العدوان علىٰ المرأة في المؤتمرات الدولية د. فؤاد العبد الكريم ص/ ٦٧ وما بعدها، كتاب البيان ط١/ ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

(١) سورة آل عمران آية/ ١١٠.

٣- التعددية الحزبية أو السياسية.

أما الليبرالية الاقتصادية: فلا تختلف رؤية الليبرالية للفرد في المجال السياسي، والديني، والاجتماعي، عن المجال الاقتصادي، فإن حرية الفرد المطلقة في الكسب والإنفاق والاستهلاك هدف الليبرالية وغايتها.

فالليبرالية الاقتصادية تسعىٰ - في تصورهم - إلىٰ الدفاع عن الحرية الفردية التي تقود إلىٰ منفعة الجميع دون حضور وسيط أو فاعل.

جاء في موسوعة (لا لاند الفلسفية) تعريف لليبرالية الاقتصادية بأنها: مذهب اقتصادي يرىٰ أن الدولة لا ينبغي لها أن تتولىٰ وظائف صناعية، ولا وظائف تجارية، ولا يحق لها التدخل في العلاقات الاقتصادية التي تقوم بين الأفراد والطبقات والأمم[١].

وهذا يتفق مع آراء (آدم سميث) الذي يؤكد علىٰ حرية التجارة، وحرية المنافسة، ويعارض تدخل الدولة في الاقتصاد[٢].

ويدخلُ في الحرية التي تطالب بها الليبرالية الاقتصادية حرية كسب المال، ونوع التجارة، وحرية العمل، وحرية التعاقد، وحرية ممارسة أي مهنة أو نشاط دون تقييد بأي مانع أخذًا بشعار الثورة الفرنسية (دعه يعمل..... دعه يمر)[٣]، وانطلق آدم سميث في نظريته القائمة علىٰ (الفردية) و(الحرية) من أن أي فرد من البشر إذا أعطي الحرية، فإنه يتحرك نحو مصالحه لكي يلبي رغباته وطلباته، وعندما ينظر الجميع بهذه النظرة، سيتحرك كلٌ وفق المصلحة الذاتية لكل منهم، فتتحقق بزعمه في النهاية مصلحة الجميع، وذلك دون تدخل تشريعي أو قانوني، وإذا احتاج الاقتصاد العام إلىٰ نظام

(١) موسوعة لا لاند الفلسفية ٢/ ٣٣٦.

(٢) موسوعة المورد العربية. ٢/ ١٠٥٠.

(٣) معركة الثوابت ص/ ١٦٨ والليبرالية إشكالية مفهوم ص/ ١٥٤.

ينظمه، فهناك (القانون الطبيعي) وقانون العرض والطلب[1].

إن مبدأ الاقتصاد الليبرالي في النهاية هو: تنافس حر في سوق حرة، من أجل رغبات حرة، بعيدًا عن تدخل الدولة أو غيرها، فالأمر في النهاية لا يبعد عن الهيام الغرائزي بالدنيا لكونها المبدأ والنهاية التي لا بد أن يقضيها الإنسان لاهثًا وراء نزواته، وشهواته ومصالحه الخاصة، لكونه فردًا له حياة واحدة لابد أن يستثمرها لأقصىٰ مدىً، لأنها لن تتكرر، أليست هذه هي الروح اليهودية في النظرة إلىٰ الدنيا؟.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾[2].

المطلب الرابع: جناية الليبرالية الاقتصادية المعاصرة

لقد كان التوجه السائد لليبرالية الاقتصادية حتىٰ قبل الحرب العالمية الثانية تحكمه آراء (سميث) في كتابه (ثروة الأمم) ومفادها أن قانون العرض والطلب هو الذي يحكم قواعد اللعبة الاقتصادية دون أي تقييد حكومي، أو نقابي، فللعامل الحرية في العمل أو الترك، كما أن لصاحب رأس المال الحرية المطلقة في توظيف العدد الذي يريد بالأجر التي يريد[3]. وقد أوصلت هذه السياسة الاقتصادية التي يصدق عليها بحق وصفها بالرأسمالية المتوحشة، إلىٰ الكساد الكبير عام ١٩٢٩م الذي تسبب في أزمات اقتصادية وكساد وركود، وذلك لتمركز رأس المال، وظهور الاحتكارات الرأسمالية الضخمة، وانهيار قاعدة الصرف بالذهب، وأزمة الثورات العمالية في ألمانيا، مما جعل

(١) نفس المصدر ص/ ١٦٩.

(٢) سورة البقرة آية/ ٦٩ وانظر نفس المصدر ص/ ١٧٠.

(٣) انظر الليبرالية المتوحشة ص/ ٤١.

الحكومات تتدخل لإنعاش الاقتصاد، فتغيرت الأيديولوجية الليبرالية إلىٰ القول بأهمية تدخل الحكومة لتنظيم السوق(١)، وبتدخل الدولة في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية تغيب شمس الليبرالية الكلاسيكية لتبرز إلىٰ الوجود ما سمي بالليبرالية الجديدة أو الرأسمالية المراقبة.

وبقي الحال علىٰ هذا المنوال إلىٰ أن انتهت الحرب الباردة، حيث كانت السياسة والاقتصاد تمثلان وجهين لعملة واحدة، فلما تفردت أمريكا بالعالم كقوة وحيدة علىٰ مسرح السياسة الدولية، وصارت هي الحاكم الفعلي للعالم، ظهر ما سمي بـ(الليبرالية المعولمة)، وهي العودة إلىٰ الليبرالية الكلاسيكية كمفهوم، ومن أبرز معالم هذا التطور تخفيف، أو تحييد التدخل الحكومي في انتقال المال عبر الحدود، والأسوار السياسية، وذلك لتحقيق أعلىٰ الأرباح والمكاسب، وبذلك تخلت الدولة عن دورها في حركة الاقتصاد، وصار الشعار الجديد (السياسة في خدمة الاقتصاد) إلىٰ أن بدأت معدلات النمو في التراجع، وارتفعت معدلات البطالة، وانخفضت معدلات نمو الإنتاج.

ومنذ شهرين أو يزيد (هذا في ١٢/ ٢٠٠٨م) بدأت تحمل الأخبار الاقتصادية والسياسية مزيدًا من صور الانهيار والسقوط لرموز الاقتصاد الرأسمالي من بنوك، وبورصات، وشركات تأمين، وغيرها من المؤسسات العملاقة التي كانت تمثل إلىٰ وقت قريب أهم عوامل النجاح والتميز للنظام الاقتصادي الرأسمالي، ودخل الاقتصاد العالمي في حالة ركود، ولا يعلم علىٰ وجه التحديد أين نهايتها، ومن أهم أسباب هذا السقوط الكبير: تفشي الربا، والمضاربات الوهمية، والصفقات الصورية، وبيع الديون، وعمليات الخداع والتضليل، والفساد الإداري، وما أفرزه من رشىٰ واختلاس.

وقد تنبه بعض العقلاء إلىٰ الهاوية التي سينتهي إليها النظام الاقتصادي المعولم

---

(١) المصدر نفسه ص/ ٤٧، والليبرالية إشكالية مفهوم ص/ ١٥٧.

في صورته الجديدة، ومن هؤلاء رئيس المصرف المركزي الألماني (هناس تيمتار) في فبراير من عام ١٩٩٦ أمام المنتدىٰ الاقتصادي في (دافوس) حيث قال: إن غالبية السياسيين لا يزالون غير مدركين أنهم قد صاروا الآن يخضعون لرقابة أسواق المال.

لا بل إنهم صاروا يخضعون لسيطرتها وهيمنتها[1]، وليس من شك أن الفردية والحرية غير المقيدة والتي تمثل أساس الليبرالية في شتىٰ مجالاتها ومنها الاقتصاد هو المسبب في هذه الأزمة المالية العالمية والانهيار الكبير للاقتصاد الدولي.

(١) انظر العلاقة بين الليبرالية والعولمة، كتاب (فخ العولمة).

المبحث الثالث

الحرية والعقلانية في النسق الليبرالي

المطلب الأول: الحرية الليبرالية

من البدهيات المعروفة أنه ليس هناك حرية مطلقة لا بالنسبة للفرد ولا بالنسبة للمجتمع، لأنه لا وجود لكائن إنساني غير خاضع لحتميات بيولوجية ومجتمعية، كما أنه لا إمكان لتصور قيام مجتمع يجسد مقولة الحرية بمدلولها المطلق بلا قيود، ولا شروط، ولا حتميات، فالحرية بمعناها المطلق لا تعني سوىٰ الفوضىٰ، وشريعة الغاب، وسبب ذلك أن كل مجتمع - مهما كانت درجة تحضره - تقوم بين أفراده، وجماعاته علاقات وروابط ضرورية وحتمية تنتظم حياة الناس مع اختلاف أذواقهم، ومصالحهم، وأفكارهم، وعندئذ فلن يصلح شأن المجتمع البشري، وتتحقق مقاصده إلا بوجود قواعد، وأعراف، ونظم، ومؤسسات، ينضبط لها الفعل الفردي ويمتثل.

لكن لفظ الحرية اليوم يكاد يختزل في المنظومة السياسية الليبرالية، دون غيرها من الأنساق الفكرية والسياسية، مع ما يكتنف كلمة (الحرية) من عمومية، وغموض، حتىٰ يكون مجرد التسمية به، واستعماله له إمساكًا بدلالته الكاملة.

فما هو معنى الحرية وتحولات دلالاتها الليبرالية؟.:

يؤكد الليبراليون الغربيون أن مفهوم الحرية التاريخي ارتبط بالمدينة، أو الدولة (المدينة الفاضلة)، ولم يرتبط بالكائن الحي الفرد، بمعنىٰ أن هوية الفرد كانت موصولة ومتماهية مع هوية الجماعة الإثنية والدينية - كما سبق - لذلك يحرص المفكرون الغربيون علىٰ إرجاع الحرية بمدلولها الفردي إلىٰ القرن الثامن عشر، أي

إلىٰ نظرية العقد الاجتماعي (جان جاك روسو) التي ستنتهي مع التحولات المختلفة إلىٰ اندلاع الثورات الإنجليزية والفرنسية، وهو ما يسمىٰ بعصر التنوير، إيذانًا بالانتقال من المجتمع التقليدي الإقطاعي إلىٰ نمط مجتمعي بورجوازي ليبرالي.

وهكذا فقد ارتبط المدلول الفردي للحرية بالتأسيس لنظرية الحقوق المتعلقة بذاتية الفرد الإنساني بوصفه كائنًا عاقلًا، ومساويًا لغيره في الطبيعة، لكن هذا التنظير للحرية لم يمنع من بقاء هذا المصطلح في غموض وصعوبة التحديد الدلالي الجامع المانع لمعنىٰ مفهوم الحرية، مما أعطىٰ الليبرالية فرصة استغلال هذا المصطلح بتكرار مفهوم عصر التنوير للحرية، واستثماره بعد عصر الاستبداد والمظالم المتنوعة.

وبذلك سعىٰ الفكر الليبرالي إلىٰ أن يصور نفسه علىٰ أنه فكر فردي يرىٰ أن المجتمع لا يعدو أن يكون مجموعة من الأفراد التي يسعىٰ كل فرد فيه إلىٰ تحقيق ذاته وأهدافه الخاصة[1].

يقول الأستاذ وضاح نصر: إذا كان لليبرالية من وجوه فهو التركيز علىٰ أهمية الفرد، وضرورة تحريره من كل أنواع السيطرة والاستبداد، فالليبرالي يصبوا إلىٰ التحرر من التسلط بنوعيه تسلط الدولة (الاستبداد السياسي) وتسلط الجماعة (الاستبداد الاجتماعي) لذلك نجد الجذور التاريخية لليبرالية في الحركات التي جعلت الفرد غاية بذاته معارضة في كثير من الأحيان التقاليد والأعراف والسلطة، رافضة جعل إرادة الفرد مجرد امتداد لإرادة الجماعة[2].

ويعللون ذلك بأن حقوق الفرد وحرياته الأساسية تسبق في وجودها الوجود الاجتماعي والسياسي، مما يجعل لحقوقه قدسية تعمل الدولة علىٰ حمايتها، وعدم

(١) مجلة آفاق الإسلام د. حازم البيلاوي عدد/ ٤ عام ١٩٩٤م. و د. الطيب بوعزة ص/ ١٣٩ المرجع السابق.
(٢) الموسوعة الفلسفية العربية، ٢/ ١١٥٥.

التعرض لها بأي حال من الأحوال، فالفردية تعزز الحرية، وتولد الدولة الليبرالية، أو دولة الحرية، والحالة الوحيدة التي يصبح استخدام القوة فيها ضد الفرد مشروعًا هو حالة منعه من الإضرار بالآخرين.

وإذا كان شرط عدم الإضرار بالآخرين هو المقيد للحرية الفردية في المنظور الليبرالي، فإن التراضي بين رجل وامرأة على ممارسة الزنى خارج بيت الزوجية مثلًا لا يعتبر منكرًا[1]، ومثله الزواج المثلي، أو الشذوذ الجنسي، طالما أن ذلك يتم برضا الطرفين، أما إذا لم يتحقق شرط الرضا فيعتبر عندئذ اغتصابًا يعاقب عليه القانون.

ويقال هذا أيضًا في تعاطي الخمر[2]، والانتحار ونحو ذلك مما يدخل في إطار الحرية الشخصية التي لا يترتب عليها إضرار بالغير.

السيرورة التاريخية لمفهوم الحرية في الغرب:

يعيد الليبراليون تطور مفهوم الحرية وديناميكيته في الغرب إلى أربعة قرون خلت وهي:

١- ليبرالية القرن السادس عشر (الإصلاحي) وما واكب حركة الإصلاح الديني (مارتن لوثر) وتبلور مفهوم تحرير الملكية الفكرية للفرد، إذ برزت معها المناداة بإطلاق التفاعل الحر للفرد مع النص المقدس، وتحريره من التأويل الكنسي، ويمكن اعتبار هذا أول تمظهر لإرادة الحرية المعرفية.

٢- ليبرالية القرن السابع عشر (الديكارتي) وهو مؤشر تاريخي على بدء التأسيس

---

(١) أما في حال الزنا في منزل الزوجية (من جهة المرأة أو الرجل) فيعتبر مخالفة يعاقب عليها القانون باعتبار ذلك اعتداء وإضرارًا بالطرف الآخر، إلا إذا تنازل من لحقه الضرر عن حقه في المطالبة به، وعدل إلى المسامحة والعفو (باعتبار دخوله في حدود الحقوق الشخصية).

(٢) وأما تناول الخمر فيعتبر مخالفة في حال قيادته للمركبة وهو ثملاً، أو حدث منه اعتداء على الغير بسبب سكره وغياب وعيه.

الفلسفي للحداثة، والذي أكد علىٰ الحرية الفكرية للفرد في المساءلة والشك والبحث عن الحقيقة، وكان ميلاد الحرية للفرد بوصفه ذاتًا مفكرة تحمل بداخلها البداهات الفكرية الحاملة للحقيقة.

٣- ليبرالية القرن الثامن عشر (التنويري) والذي دعا إلىٰ تحرير الفرد بوصفه ذاتًا سياسية من خلال التوكيد علىٰ مفهومي الحق الطبيعي، والعقد الاجتماعي، الذي مهد لميلاد فعلي للنظرية السياسية الليبرالية. والتي تمثل الفرد بوصفه كائنًا سياسيًا، وكان في ذلك تأسيسًا لفكرة الحرية الليبرالية بوصفها لفظًا دالًا علىٰ إطلاق كينونة الفرد من قيد الاستبداد.

٤- ليبرالية القرن التاسع عشر (تغيُّر المفهوم) وفيه تغير مفهوم الحرية الليبرالية السابق. فلم تعد الحرية تقدم بوصفها استحقاقًا طبيعيًا للكائن الإنساني برسم إنسانيته، بل أصبحت الحرية لا تعني سوىٰ حرية الفرد المالك، أو الإنسان الاقتصادي، وبذلك استوت الفلسفة الليبرالية بوصفها منظورًا اقتصاديًا يبتذل الحرية ويختزلها إلىٰ مجرد دال علىٰ حرية القوة الاقتصادية، ولا يزال هذا التصور ناظمًا للوعي الليبرالي وسائدًا في خطابه إلىٰ اليوم[1].

وبذلك يصح القول: إن الليبرالية بدءًا من القرن التاسع عشر وإلىٰ اللحظة الراهنة ليست دعوة إلىٰ حرية الفرد بوصفه كائنًا إنسانيًا، بل هي دعوة إلىٰ حرية الفرد بوصفه مالكًا اقتصاديًا، مالكًا لأدوات الإنتاج، ليست بمدلولها المادي المختزل في السيولة النقدية، والتقنية الآلية، والثروة الطبيعية فحسب، بل بمدلولها الموسع بوصفها ثروة.

(١) الطيب بو عزة، المصدر نفسه ص/ ١٤٤.

المطلب الثاني: النسبية العقلانية

عندما اكتشف الإنسان الغربي خدع الكنيسة حكم على كل الأديان بالنفي والإقصاء، وأصر على أن يبحث عن إجابة للمعضلات الإنسانية الكبرى بعقله المجرد مستبعدًا أي إمكانية لوجود وحي صادق، أو دين حق.

ووفق هذا المنظور فقد صار العقل هو المرجعية الأولى - وهي جوهر العلمانية -(1) ودخلت أوروبا مرحلة جديدة بما يمكن أن يطلق عليها مرحلة تأليه العقل كمصدر وحيد للمعرفة، وأحكامه المطلقة على كل شيء.

وقد عمل الليبراليون العرب على استنساخ التجربة الغربية في نظرتها إلى العقل والدين، فتعاملوا مع الإسلام وفق تعامل الغربيين مع المسيحية. ويصرحون بأنه لا يمكن فهم العالم ومشكلاته، وتعقيداته، وتطور الحياة الإنسانية إلا بإخضاع كل شيء لحكم العقل لإثباته أو نفيه، أو معرفة خصائصه، أو معرفة ضرره، أو منفعته، فالعقل - وفق زعمهم- قادر على فهم وتفسير الظواهر، وحل المشكلات، والتحكم بمسار الواقع بإعادة صياغته وفق مبادئه وآليات عمله.

والذي يعنينا من العقلانية الليبرالية هنا هو قولهم بالنسبية في التعاطي مع شتى الميادين العلمية والإنسانية، تبعًا لما انتهى إليه (إنشتاين) من أن الثابت الوحيد هو (الضوء) وأن ما سواه نسبي، ومن ثم قالوا: إن كل الأشياء، وكل القيم، والمعايير، والأفكار، نسبية تختلف قيمتها من شخص إلى آخر، ومن زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان. وإليك إيضاح ذلك.

---

(1) ومن هنا فقد كانت العلمانية هي القاسم المشترك بين الليبراليين قديمًا وحديثًا، يتفق فيها الليبراليون المتطرفون والمعتدلون.

١- النسبية العقلانية والأخلاقية:

ربط الليبراليون العقلانية بمبدأ النسبية، وخلصوا إلىٰ القول: بأنه لا توجد حقائق إنسانية مطلقة، فكل شيء نسبي بحسب من ينظر إليه. مما سيطلق العنان لمملكة العقل في البحث العلمي، وتقصي شتىٰ الميادين العلمية والإنسانية، وإذا كان كل شيء نسبي – كما يصرحون – فإنه عن طريق العقل يمكن إيجاد تفسيرات ومسوغات متناقضة لحالة واحدة، ويرىٰ الليبراليون أن العقل ينتج الحكمة والمنفعة علىٰ الرغم من نسبيته[(١)].

أما القيم الأخلاقية فقد سعت الليبرالية إلىٰ تجريدها من كل أساس مرجعي ديني أو اجتماعي، لتضع أساسًا وحيدًا للمبدأ الأخلاقي وهو مبدأ المنفعة بمدلوله الخاص الفردي النسبي، ليكون معيارًا لقياس السلوك الأخلاقي، والعملي قياسًا كميًا.

فالأخلاق لم تعد في نظر الليبرالية قيمًا عليا والتزاما، بل مجرد قيم تجارية تقاس بمبدأ المنفعة في مردودها الفردي. وبناءً عليه فقد أصبحت الخلاعة والإباحية المفرطة سمة لسلوك كثير من الناس، وحجتهم في ذلك عدم وجود معايير لما هو لائق، وغير لائق، ومن ثم فإن استنكار الناس نسبي.

وهذا أدىٰ إلىٰ فقر المعنىٰ الخلاقي داخل هذه الفلسفة، لأنها تنظر إلىٰ الكائن (الإنسان) جسدًا ذا غرائز تطلب الالتذاذ والإشباع، دون أن تضع في الحسبان الأبعاد المعنوية والروحية في كينونة الإنسان وهي الأبعاد التي أبصرتها الديانات السماوية، والفلسفات البشرية، منذ أقدم تجلياتها[(٢)] والتي تأسست علىٰ حب الخير، وتحقيق المصالح لكل البشر علىٰ تنوع مذاهبهم، وأعراقهم.

---

(١) انظر الليبرالية القديمة والليبرالية الجديدة المعاني والمبادئ والمفاهيم، سيار الجميل .www alitijahalakhar.com نقلًا عن الليبرالية، وليد صالح الرميزان ص/ ٥٨، ط١ ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، الروافد بيروت لبنان.

(٢) انظر الطيب بو عزة مصدر سابق ص/ ١٥٢.

٢- النسبية في التعامل مع النصوص الدينية:

يعتمد الفكر الليبرالي العلمانية أساسًا في تعامله مع الدين والمقدسات عمومًا- كما سبق-، وهم عندما يتحدثون عن العلمانية يقولون عنها بأنها لا تلغي الدين أو الممارسة الدينية، بل تخرج السياسة والتنظيم الاجتماعي من حيِّز الممارسة الدينية، كما تخرج الممارسة الدينية من الحيز الاجتماعي والسياسي، كي يعيدها إلىٰ إطارها الوحيد في الحيِّز الشخصي(١).

أما موقف الليبراليين من النصوص الدينية في المصادر الإسلامية (القرآن والسنة) فيلخص بأنه ليس للنص معنًا ثابتًا أو دلالة ذاتية، فلا توجد عناصر جوهرية ثابتة للنصوص، وليس للألفاظ أي دلالة ذاتية(٢).

وينظرون إلىٰ النص الديني علىٰ أنه مفتوح علىٰ جميع المعاني، إنه كون من العلامات والرموز، ويمكن أن يتسع حتىٰ لتأويلات المخالفين للإسلام، ويتكيف مع كل الاتجاهات، والأغراض، لأنه من حق غير المسلمين الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي أن يفسروا القرآن بما يوافق ثقافتهم، ومعتقداتهم، ولذلك جاء النص - كما يقولون - مجملًا عامًا كليًا لأنه رحمة للعالمين وهداية للناس أجمعين(٣).

ويصرح منظرو الفكر الليبرالي بأن النص القرآني مثلًا منذ لحظة نزوله الأولىٰ - أي مع قراءة النبي له لحظة الوحي - تحول من كونه نصًا إلهيًا، وصار فهمًا (نصيًا إنسانيًا) لأنه تحول من التنزيل إلىٰ التأويل، ويقولون: إن فهم النبي للنص يمثل أولىٰ

---

(١) انظر العلمنة والدين، أركون ص ٧٣، ٧٩.

(٢) اشكاليات القراءة، نصر حامد أبو زيد ص/ ٧٧.

(٣) انظر نقد النص، علي حرب ص/ ٨٧، والنص القرآني، الطيب التيزيني ص/ ٢٢٦، ٢٢٩ وأنظر العلمانون والقرآن الكريم، د. أحمد الطعان ص/ ٤٢٨.

مراحل حركة النص في تفاعله بالعقل البشري[1].

وعندئذ فالعقل هو الذي يمنح النص معناه وفق شروط الزمان والمكان، وبالتالي فليس للنص معنًا ثابتًا ولا مطلقًا، ويرىٰ الليبراليون أن المشكلة في عملية تفسير وفهم تلك النصوص هي إعطاؤها قيمة مطلقة في الثقافة السائدة، مع أنها – وفق زعمهم – إنتاج بشري يحمل الصواب والخطأ، أي أنها مسألة نسبية[2]، وليس من حق أحد من البشر أن يقرر معنىٰ نهائيًا للقرآن، لأنه عندئذ سيضع نفسه وصيًا علىٰ الناس بوصاية إلهية، فليس للقرآن معنىٰ محددًا ونهائيًا إنه يقول كل شيء دون أن يقول شيئًا[3].

هذه إذن المعاصرة التي يتوخاها الخطاب الليبرالي في قراءة النص القرآني أو الحديث النبوي، فلكي يكون النص معاصرًا لنا علينا أن نضفي عليه ما نريده نحن، ونقوِّله ما لم يقل[4].

إن كل مسلم يدرك جازمًا بأن اختصار الدين في المجال الشخصي، وعزله عن حياة الأمة هو أولىٰ الخطوات للقضاء عليه. والتخلص منه[5]، فضلاً عن إفراغ النصوص من محتواها أو معانيها التي دلت عليها.

أما الأسس الأخرىٰ لليبرالية كالعلمانية، والتعددية ونحوها فقد سبق الحديث عنها في فصلي العلمانية والديمقراطية.

---

(١) نقد الخطاب الديني، نصر حامد أبو زيد ص/ ١٢٦.

(٢) انظر الليبرالية، الرميزان، مصدر سابق ص/ ١٠٧.

(٣) انظر نقد النص، علي حرب ص/ ٢٤٣.

(٤) سلطة النص، عبد الهادي عبد الرحمن ص/ ٣٢.

(٥) انظر الإسلام في الألفية الثالثة ديانة في صعود، مراد هوفمان ص/ ٢٣.

المبحث الرابع

مراحل تطور الليبرالية العربية

تمهيد:

بدأ اتصال الفكر العربي بالخطاب الليبرالي في وقت مبكر كأول مذهب فلسفي وسياسي غربي تعرَّف عليه المثقف العربي في العصور المتأخرة.

بدأ هذا الاتصال مع حقبة الصِدام العسكري بين العالم العربي والغرب في القرن التاسع عشر، مع حملة نابليون بونابرت الفرنسية علىٰ مصر عام ١٧٩٨م.

وقد أثار الصدام العسكري تساؤلًا عميقًا في الوعي العربي عن أسباب ضعفه، ومكمن قوة الآخر، وعند اطلاعه علىٰ الواقع الأوروبي، ومعاينته لشرطه الثقافي والاجتماعي وجد الليبرالية هي الأيديولوجية المهيمنة[1].

لكن ما مدىٰ تأثير المذهب الليبرالي الغربي علىٰ المثقف العربي؟ وما الموقف من هذا المذهب الوافد؟.

وهنا نجد أنفسنا أمام ضرورة التفريق بين تيارات عدة تأثرت علىٰ نحو مختلف لطروحات الليبرالية الغربية، تبعًا لاختلاف الزمان، والظروف الدولية، وما سادها من تطورات فكرية وسياسية وعسكرية.

وفي الحقيقة أن تطور الفكر الليبرالي العربي لم يحصل فقط بتتابع زمني بين

---

(١) المصدر نفسه ص/ ١٥٧.

جيل وجيل، أو بين مدرسة ومدرسة، بل إنه حصل داخل المدرسة الواحدة، وحتىٰ الشخص الواحد.

ومع ذلك يمكن تقسيم تطور الفكر الليبرالي في العالم العربي إلىٰ ثلاث مراحل تاريخية علىٰ النحو التالي:

المطلب الأول: المرحلة الأولى: (معتدلون وتغريبيون)

امتدت هذه المرحلة من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحتىٰ قيام الثورة المصرية عام ١٩٥٢م وفيها سيطر اتجاهان فكريان علىٰ التوجه الليبرالي:

الاتجاه الأول: نهضويون معتدلون، والاتجاه الثاني: نهضويون تغريبيون.

أما النهضويون المعتدلون:

فقد دعوا إلىٰ تأصيل القيم الغربية الجديدة لإحلالها بدلًا عن القيم القديمة، وتحرير العقل من قيود التقاليد، والدعوة إلىٰ قيم الشورىٰ، ونقد الاستبداد السياسي، والتجديد، وفهم الدين علىٰ أساس منطق العقل، استنادًا إلىٰ القرآن الكريم، والسنة النبوية، والعمل علىٰ تطوير وتحديث المؤسسات الاجتماعية والتعليمية، وبناء قوة اقتصادية وعسكرية حديثتين.

ومن خصائص الفكرة الليبرالية التي تأثر بها هؤلاء أنهم استعملوها مصحوبة دائمًا بإحالات مرجعية إلىٰ الميراث الثقافي الإسلامي، الأمر الذي جعلها تتبدىٰ في نتاجهم بوصفها مفاهيم مؤصلة[1].

(١) وأوضح شاهد علىٰ ذلك رفاعة الطهطاوي في كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز (١٩٣٤م) وأيضًا خير الدين التونسي في كتابه (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك (١٨٦٧م) وأنظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/ ٣١٦، ٢/ ٢٩٢ وأنظر الليبرالية، الرميزان ص/ ٦٦ مصدر سابق.

وعلىٰ رغم تأثر هذا التيار بالطروحات الليبرالية الغربية إلا أنه من الخطأ أن يصنف هؤلاء وفق قيم ومعايير الليبرالية الغربية المذهبية، لكن الصحيح أن كثيرًا من المفاهيم الليبرالية تم استحضارها من قبل هؤلاء الرواد، وقد شكلوا بداية دخول الفكرة الليبرالية إلىٰ الواقع العربي.

ومن ثم فالمائز الرئيس لصيغة تلقي الفكر النهضوي المبكر المعتدل لليبرالية هو أخذها بوصفها رؤىٰ وأفكارًا، ومفاهيم لا نسقًا جاهزًا ومتكاملًا، لذا كان من الخطأ – كما سبق – تصنيف هؤلاء علىٰ أنهم ليبراليون لمجرد أنهم دعوا إلىٰ الحرية والتحديث، بل يمكن أن يكونوا مرجعًا عامًا لتيار اليقظة الإسلامية الحديثة.

وقد مثل هذا التيار جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وخير الدين التونسي، وعبد الرحمن الكواكبي، وعبد الله النديم وغيرهم.

أما النهضويون التغريبيون:

فقد اتخذ أصحاب هذا الاتجاه الغرب نموذجًا مثاليًا للتنمية والتحديث، حيث تم طرح العلمانية، والعقلانية، والتحرر الاجتماعي كبديل للإيمان الديني المطلق، وتأسيس الوحدة علىٰ الفكرة القومية علىٰ أساس الانتماء القومي أو الإقليمي، وإحياء اللغة العربية وآدابها، وتحديث الحياة وفق التقاليد الليبرالية الغربية، لهدف اللحاق بركب الحضارة الأوروبية الذي يجسده التقدم الغربي الرأسمالي.

ويمثل هذا التيار فرح أنطون، وفرنسيس المراش، وطه حسين، وقاسم أمين، وسلامة موسىٰ، ومحسن الزيات، وتوفيق الحكيم، ومحمد حسنين هيكل، وشبلي شميل، ولويس عوض، وزكي نجيب محمود، وغيرهم.

وعلىٰ كل حال فإننا لا ننكر حاجة مجتمعاتنا إلىٰ الحرية والتحديث سواء علىٰ المستوىٰ الثقافي، أو الاجتماعي، أو السياسي... الخ لكن معالجة ذلك لا تكون بمجرد

استقدام مذاهب مستوردة جاهزة، وفرضها علىٰ واقع الناس، وإنما لا بد من إعمال الوعي النقدي، وتأصيل مفاهيم التفكير في ثوابت الإسلام وقيمه الإنسانية إن أردنا لهذه المفاهيم أن تكون مؤثرة وفاعلة وقادرة علىٰ تحريك الوجدان والوعي والفعل.

المطلب الثاني: المرحلة الثانية: (ليبرالية التحرر القومي)

وتمتد من النصف الثاني من القرن العشرين، وحتىٰ بداية الألفية الثالثة، حيث خف الصوت الليبرالي في بداية هذه المرحلة بسبب هيمنة التيار القومي علىٰ الساحة السياسية والفكرية في العالم العربي، الذي حمل رؤية مغايرة، ومتحدية للطرح الليبرالي حين ركز علىٰ قضية التحرر من الاستعمار، وارتباط ذلك بالمشروع القومي، والتأكيد علىٰ مفهوم الوحدة القومية، إلا أن الليبرالية لم تختف تمامًا بل ظلت مرتبطة بنخبة ضعيفة معارضة ما لبثت أن برزت بقوة مع أواخر السبعينات من القرن المنصرم نتيجة للتحولات الداخلية التي حدثت في مصر بتولي السادات سدة الحكمس، والتحول من المعسكر الاشتراكي إلىٰ المعسكر الرأسمالي، وظل التيار الليبرالي في هذه الفترة يسير علىٰ نفس مبادئ الخطاب الليبرالي للمرحلة الأول مع إضافة المبادئ الآتية[1]:

* محاربة الديكتاتورية والتركيز علىٰ المفاهيم الديمقراطية.
* المناداة بإقامة المجتمع المدني.
* الدعوة إلىٰ الالتزام بحقوق الإنسان.
* الاهتمام بمفهوم الدولة الوطنية.

(١) انظر من هم الليبراليون الجدد؟ وما هو خطابهم، شاكر النابلسي ص/ ١٩، ٢٠ منشورات الجمل ٢٠٠٥ ط ١ ألمانيا، وتحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي، محمد جابر الأنصاري ص ٨١، ٨٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ١٩٨٠ الكويت، وأنظر الليبرالية، وليد بن صالح الرميزان ص ٧٠.

* التركيز على الواقعية السياسية في التعامل مع المنظومة الدولية.

* مواجهة المد الإسلامي بكافة الوسائل.

المطلب الثالث: المرحلة الثالثة: (الليبراليون الجدد)

وهي مرحلة بدأت مع أحداث الحادي عشر من سبتمبر (٢٠٠١م) حيث ساعدت التحولات الدولية على غلبة المنظور الليبرالي ببعديه السياسي والاقتصادي على مستوى عالمي مما جعل الخطاب الليبرالي في هذه الفترة أكثر جرأة في طرح مشروعه مع استمراره على نهج التيارات الليبرالية السابقة.

وقد حدد أبرز المتحمسين لهذا التيار وهو شاكر النابلسي المبادئ الأساسية التي يمكن أن تشكل مسودة لبيان (مانيفستو) الليبراليين الجدد، والتي يمكن استخلاص موقفها السياسي والموقف من الدين والتراث على النحو التالي:

١- الموقف السياسي:

* الدعوة إلى محاربة الإرهاب الديني، والقومي، والسياسي، بكافة أشكاله.

* عدم الحرج من الاستعانة بالقوى الخارجية لدحر الأنظمة العربية الديكتاتورية.

* إنه لا حرج أن يأتي الإصلاح من الخارج، على ظهر جمل عربي، أو دبابة بريطانية، أو بارجة أمريكية، أو غواصة فرنسية.....الخ.

* الإيمان بالتطبيع السياسي والثقافي مع الأعداء (وفي مقدمتهم إسرائيل) والاعتراف بالواقعية السياسية.

* الوقوف إلى جانب العولمة الاقتصادية التي يمكن أن تقود إلى الحداثة السياسية والثقافية.

٢- **الموقف من الدين والتراث:**

* إخضاع المقدس[1] والتراث، والتشريع، والقيم الأخلاقية، للنقد العميق المؤسس علىٰ العقلانية.
* رفض الموقف الديني من الآخر، واعتباره موقفًا عدائيًا.
* اعتبار الأحكام الشرعية أحكامًا وضعت لزمانها ومكانها، وليست أحكامًا عابرة للتاريخ كما يدعىٰ بعض رجال الدين !!!، كحجاب المرأة وميراثها وشهادتها وتوليها المناصب السياسية أو القضائية العليا.
* قولهم إن الفكر الديني الذي جاء به علماء الدين وفقهاؤه!!! ليس الدين نفسه، ويعتبرون هذا الفكر حجر عثرة، أو عقبة أمام الفكر الحر وتطوره، وأمام ميلاد الفكر العلمي.

أما تحقيق ذلك وفق النابلسي فيتمثل في التالي:

* علىٰ العرب أن يعيشوا بواقعية وأن يتخلوا عن التعالي، والمثل الأعلىٰ الموهوم الذي يسعون من أجله.
* ضرورة تحرير النفس العربية من ماضيها، ومن حكم الأسلاف الذين ما زالوا يحكموننا من قبورهم.
* ضرورة خلق شخصية عربية عقلانية واقعية عملية وطنية لا عرقية ولا مذهبية.
* ضرورة مساواة المرأة بالرجل مساواة تامة في الحقوق والواجبات والعمل، والتعليم، والإرث، والشهادة، والتوظيف.
* الإصرار علىٰ إصلاح النظم التعليمية وتغيير المناهج الدراسية[2].

---

(١) مصطلح ليبرالي يقصد به كل ثوابت الدين كأصول الإيمان وسائر نصوص القرآن الكريم والسنة الصحيحية.

(٢) من هم الليبراليون الجدد؟ جدل فكري ص/ ٢٢ – ٢٥ عن الليبرالية، وليد الرميزان ص/ ٧٤.

وأول ما يواجهنا به هذا التيار هو إفصاحه عن نظرة لا تخلو من انبهار عميق، وتوقير ظاهر لليبرالية، فهي عنده ليست مجرد فكر، أو مذهب، بل (مطلق ثقافي) يعلو على كل المذاهب والرؤى، يستوعب بداخله كل خبرات الإنسان ومعارفه التي حصل عليها خلال تاريخه المديد، فكأن الليبرالية هي الخلاصة النهائية للتجربة الإنسانية، إنها التتويج النهائي لمسيرة الوعي والفعل البشريين[1].

أما على مستوى المبادئ فيرى سيار الجميل: أن الليبرالية هي أولًا فصل للدين ليس فقط عن السياسة، بل عن النشاط الإنساني البشري عامة، دون أن يتنبه أن موقفه هذا يناقض ما نراه عيانًا في الواقع، فأمريكا مثلًا التي هي أكبر المدافعين والداعين لليبرالية، يمتزج في خطابها، وفعلها السياسيين البعد الليبرالي بالعقيدة الدينية.

ويشير السيار إلى اختلاف الوضع الليبرالي المعاصر عن الليبرالي القديم قائلًا: وإذا كانت القديمة ترتبط بالفكر الأوروبي ونتائجه، فإن الجديدة ترتبط بالفكر الأمريكي وممارساته[2].

وعلى كل حال فإننا لا ننكر حاجة مجتمعاتنا إلى الحرية سواء على المستوى الثقافي، أو الاجتماعي، أو السياسي،... الخ لكن معالجة ذلك لا تكون بمجرد استقدام مذاهب مستوردة جاهزة، وفرضها على واقع الناس، وإنما لا بد من إعمال الوعي النقدي، وتأصيل مفاهيم التفكير في ثوابت الإسلام، وقيمه الإنسانية، إن أردنا لهذه المفاهيم أن تكون مؤثرة وفاعلة، وقادرة على تحريك الوجدان، والوعي، والفعل.

(١) انظر الليبرالية القديمة والليبرالية الجديدة، الحوار المتمدن د. سيار الجميل العدد / ١١١٩، ٢٤، ٢/ ٢٠٠٥م.

(٢) انظر بو عزة المصدر السابق ص/ ١٦٧.

المبحث الخامس

موقف الليبرالية من الثوابت

إن الليبرالية تستهدف في برنامجها إسقاط الثوابت المستقرة، وإلغاء الحدود الفاصلة أمام الإنسان سواء كانت من قبل الدين، أو المجتمع، أو الدولة، إلا فيما يعرضه للعقوبة القانونية.

ومرجع ذلك إلىٰ أن حرية الفرد غير المحدودة هي المحور الأساس والركيزة الأولىٰ في اهتمام الفكر الليبرالي، فالليبرالية تدير معركتها مع الدولة، ومع المجتمع ومع الدين لحساب تلك الحرية الفردية، وتعتبر نصرها في هذه المعركة هو الوصول بالفرد إلىٰ (الاستقلال) عن أي مؤثر ناتج عن بواعث داخلية (أخلاقية أو اعتقادية) أو موانع خارجية (اجتماعية أو سياسية).

وبعد هذا نتساءل هل بقي شيء من الثوابت في الفكر الليبرالي المعاصر؟

والذي يبحث في ثنايا التوجه الليبرالي يجد بقايا ثوابت ينادي بها الليبراليون في أدبياتهم ومن ذلك:

١- تقديس الحرية والتعددية:

فالحرية الناشئة عن إعمال العقل مكفولة لكل إنسان، ولكل مجتمع، ولو خارج الشرائع الإلهية ويعللون ذلك بأن العقول مختلفة فالاجتهادات متنوعة، فلا بد من التعددية، سواء كانت تعددية سياسية، أو تنوعًا اقتصاديًا، أو اجتماعيًا.

٢- النسبية الأخلاقية:

ومعناه أن كل القيم الأخلاقية عند الليبراليين لابد أيضًا أن تدور حول محور

الحرية الفردية والملكية الخاصة، وينبغي أن لا تكون أبدًا حائلًا بين الإنسان وبين حقه في أن يكسب ما يشاء، وينفقه فيما يريد، وبالتالي فإن الأخلاق عندهم مسألة نسبية، أو مصلحية، فقد تصلح في مكان دون مكان، وفي زمان دون زمان، ومع إنسان دون إنسان.

٣- حتمية الصراع لضمان التطور والارتقاء إلى الأحسن:

ففي الفكر الليبرالي تعني حتمية الصراع المسمىٰ بـ(القانون الطبيعي)، وأن ذلك الصراع سيستمر حتىٰ يسود النمط الليبرالي في الحياة، ويعم نموذجه، بعد هزيمة الديمقراطية وغيرها من الأنماط الفكرية والحضارية.

وقد رأىٰ أكثر الليبراليين في زمن الحرب الباردة الممتدة من الحرب العالمية الثانية حتىٰ سقوط الاتحاد السوفيتي تجسيدًا لآخر فصول الصراع الحضاري والثقافي بين الليبرالية والاشتراكية، وأن ذلك مؤذنًا بنهاية التاريخ وهو ما بشر به الفيلسوف الأمريكي (فوكوياما) في كتابه نهاية التاريخ وخاتم البشر، حيث دعا إلىٰ عولمة الثقافة الأمريكية لكونها أرقىٰ تجليات الفكر الليبرالي المنتصر، وإن عصر منافستها قد انتهىٰ، وهو ما أنكره المستشرق اليهودي (برنارد لويس) حيث رأىٰ أن الصراع لم ينته لأنه لا تزال هناك قوة لم يتم الانتصار عليها ولم تهزم حضاريًا وهي الإسلام(١).

وقد صدقت رؤية المفكر اليهودي (برنارد لويس) (وهو كذوب) بعد أن ارتفع صوت الحديث مرة أخرىٰ عن حتمية الصراع؛ صراع الحضارات في كتاب لـ(هنتنغتون) بعنوان (صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي)، والذي انتهىٰ إلىٰ صراع بين الإسلام والليبرالية النصرانية واليهودية، وقد دخل علىٰ خط الصراع نوع من وحوش الصليبيين والصهيونيين المحسوبين علىٰ الليبرالية في حلف غير مقدس يجمع بين (المحافظين اليهود الجدد) و (الإنجيليين المسيحيين) و (الليبراليين الجدد) في حملتهم علىٰ العالم الإسلامي باسم مكافحة التطرف.

---

(١) معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية ص/ ٨٢ بتصرف.

المبحث السادس

موقف الإسلام من الليبرالية

مر بنا سابقًا أن الليبرالية تقوم علىٰ نزعتين؛ الفردية والحرية، لتطلق العنان للإنسان ليحقق ما يراه خيرًا له، بحيث لا يعيق تحقيق ذلك أي قيود خارجية؛ دينية أو سياسية، أو اقتصادية، أو ثقافية، أو اجتماعية طالما أنه لا يحرم غيره من تحقيق مصالحه.

ومما يجدر التأكيد عليه أن الفردية (أو الأنانية) الليبرالية نزعة تدفع الإنسان إلىٰ أنه لا يرىٰ إلا ذاته في هذا الوجود، يرىٰ ذاته في كل شيء، وأن الحياة له وحده دون غيره، ولذا لا يعنيه في قليل ولا كثير هذا الغير الذي هو بعيد عن ذاته، لا يعنيه إذا كان حيًا حياة طيبة يسعد بها، أو حياة تعسة يشقىٰ بها، لا يعترف بأن الغير يشاركه في هذه الحياة، ويقاسمه الوجود الإنساني.

ولذلك لا يقال في الفردية أو الأنانية أنها مرض اجتماعي فحسب، وإنما يجب أن توصف بأنها مانع من أن يكون هناك وضع اجتماعي علىٰ صورة ما. وبعد هذا نتساءل عن موقف الإسلام من الفردية والأنانية.

المطلب الأول: الفردية (الأنانية) في منظور الإسلام

لعل من باب ترديد البدهيات المكررة القول بأن الإسلام جاء لمحاربة الأنانية، وكبت النزعة الفردية، فالإسلام جاء ليربط الإنسان بربه، وينظم علاقة الفرد بغيره،

وهو منهج يهدف إلىٰ تخفيف حدة الأنانية في الإنسان، وتقوية ميله الاجتماعي، لينتقل به من أن تتحكم فيه النزعة الفردية إلىٰ أن يسود فيه المعنىٰ الاجتماعي، وهو قبول غيره في المشاركة في مجتمع واحد يقوم علىٰ تحقيق معنىٰ الإنسانية في علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وعندئذ تتحقق الخلافة التي نيطت بالإنسان علىٰ هذه الأرض.

لقد سبق الإسلام العالم كله في تقرير هذه الرابطة الوثيقة بين بني الإنسان جميعهم في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[1].

وتأكد ذلك من خلال التشريعات والممارسات التاريخية الإسلامية، ويظهر هذا التجلي الأخلاقي في قول الرسول ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[2].

والإسلام في تشريعاته الربانية من أولها إلىٰ آخرها هي رسالة إنسانية، وبالتالي هي رسالة اجتماعية، هي رسالة إنسانية علىٰ معنىٰ أنها تدعو لتحقيق الخصائص الإنسانية من العدل، والعطف، والرحمة، والتضامن، والتعاون، والأخوة، والمشاركة في الخير، والمشاركة في رفع الضرر، والرسالة بهذا المعنىٰ هي رسالة المجتمع، أو هي الأهداف التي تناط بأي مجتمع[3].

لذلك يمكن القول: إن المجتمعات التي تقوم علىٰ القيم الليبرالية، لا تكون بحال سبيلًا إلىٰ الخير والمعاونة، بل هي مجتمعات تقود إلىٰ الاعتداء والإيذاء والظلم، ولعل خير شاهد علىٰ ذلك علاقة العالم الرأسمالي الليبرالي بالعالم الثالث، أو العالم

(١) سورة الحجرات آية/ ١٣.

(٢) الحديث أخرجه البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ١/ ٥٢، ٥٤ في الإيمان باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومسلم في الإيمان باب الدليل علىٰ أن خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحبه من الخير لنفسه.

(٣) الدين والحضارة الإنسانية د. محمد البهي ص/ ٢٦١.

النامي، إنها علاقة قوامها مصالح الغرب الطاغية على حساب الدول الفقيرة أو النامية، في حين يقرر الإسلام علاقات إنسانية في نسق محكم قوامها التعاون، والتكامل، والشمولية.

المطلب الثاني: الإسلام والحرية

الحرية في منظور الإسلام تعني حرية الإرادة، أو القدرة على الاختيار، والتي أعطيت للإنسان من خالقه لتكون حجة عليه في سلوكه الدنيوي، فهو بحريته يستطيع أن يفعل، وأن لا يفعل، وأما ما يحدث له بغير حريته وإرادته فلا يحاسب عليه، وهذا رحمة من الله تعالى.

فحرية الإرادة هي التي تبرر مسؤولية الإنسان عن أقواله وأفعاله أمام خالقه أولًا، وأمام البشر ثانيًا.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾[2]، أما ما يصدر عنه بغير حرية ولا إرادة منه (وهو ما يسمى في المصطلح القرآني بالإكراه، فلا يحاسبه الله عليه، يقول الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾[3].

---

(١) سورة الإنسان آية/ ٣.

(٢) سورة الشمس آية/ ٧ - ١٠.

(٣) سورة النحل آية/ ١٠٦.

وتعاليم الإسلام تهدف إلىٰ نقل الإنسان من دائرة الصراع المرير بين الحكمة والشهوة، وبين الهداية والغواية إلىٰ مجال الحكمة والهداية معًا، بحيث يستطيع الإنسان الذي حمل نفسه علىٰ تلك التعاليم أن يمارس الاختيار والمشيئة، فيما يفعل وفيما يذر.

ومن خلال إيمان المسلم بالله واليوم الآخر يخف ثِقل هذه الحياة في نفسه، فلا يتشبث بتحصيلها، ولا يرىٰ الخير كل الخير في الاستمتاع بها، وعندئذ يستطيع أن يقول نعم أولًا فيما تلح عليه الغرائز، لأنه بهذا الإيمان أصبح يستهدف في حياته وبكفاحه في هذه الحياة هدفًا أعلىٰ وهو تحقيق القيم الإنسانية، أو الحرص علىٰ البقاء في المستوىٰ الإنساني الفاضل.

وفي الحقيقة أن الإسلام قد منح الإنسان الحرية الحقة، وأن تقييدها بعدم الإضرار قيد صحيح، ولكنه خلاف الفهم القاصر لقيد الإضرار لدىٰ الليبراليين، فالإسلام يمنع الإضرار بالغير كما يمنع الإضرار بالنفس أيضًا، والقاعدة الأصولية المشهورة «لا ضرر ولا ضرار».

فالعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة مثلًا خارج إطار العلاقة الزوجية (الزنىٰ) تعتبر في منظور الإسلام جريمة، ولو تمت بالتراضي، فهو بالإضافة إلىٰ كونه انتهاكًا لما حرم الله، فهو إضرار بنفسه وبغيره، لما يترتب عليه من اختلاط للأنساب، وضياع للأطفال بانتفاء المسؤولية الأبوية التي ينشأ الأولاد في كنفها كما هو إضرار بالمرأة نفسها.

ويقال ذلك في الزواج المثلي، أو الشذوذ الجنسي، وشرب الخمر ونحوه، وبناء علىٰ هذا فإن حرية الإنسان محصورة في الاختيار بين المباحات وهي طيف واسع جدًا، وأما المحرمات والواجبات فهي واجبة الامتثال علىٰ وجه الإلزام، وأما المكروه والمستحب فأقل إلزامًا قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ

أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1].

إضافة إلىٰ ذلك فإن تقييد الحرية في المنظور الليبرالي بعدم الإضرار بالغير فيه تعطيل لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو سر تفضيل هذه الأمة علىٰ غيرها من الأمم، قال الله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[2]، وقال سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[3].

كما أن تقييد الحرية بعدم الإضرار بالآخرين فيه إلغاء لبعض العقوبات كحد الزنىٰ وشرب الخمر ونحوها بدعوىٰ عدم الإضرار بالغير.

أما الحياة بهدف تحصيل المتع والشهوات وحدها فلا يعرفها المؤمن بالله، وبذلك يفترق صاحب الغرائز البهيمية أو المادية عن صاحب الإيمان في أن المتع والشهوات غاية وهدف أخير بالنسبة لغير المؤمن كما قال الشاعر:

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

كما أن الحرية التي ينادي بها الإسلام هي حرية الإنسان في الأمور المباحة، وهو خطاب الشارع المتعلق بأفعال العباد بالتخيير، دون باقي الأحكام الأخرىٰ.

فالمسلم تحكمه الأحكام الشرعية التي شرعها الله لعباده سواء أكان في مجال الأمر، أم النهي، أم الكراهة، أم الندب، أم الإباحة، بذلك تكون الحرية في المباح

(١) سورة الأحزاب: آية/ ٣٦.

(٢) سورة آل عمران: آية/ ١١٠.

(٣) سورة المائدة: آية/ ٧٨.

ليس غير، مع أن الأصل في الأشياء الإباحة ما لم يرد دليل علىٰ تحريمها، والأصل في الأفعال التقيد بالحكم الشرعي، كما يقرر علماء الأصول بلا استثناء.

كما عرف المسلمون الحرية بأنها سمو ومروءة وشهامة يمثله قول الإمام الشافعي من شعره الحكيم:

همتي همة الملوك ونفسي نفس حر ترىٰ المذلة كفرًا

ولما تلا النبي ﷺ آية العهد علىٰ النساء عام الفتح ووصل إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾[1]، قالت له هند امرأة أبي سفيان: أو تزني الحرة يا رسول الله؟ إنه تعجب بالغ، واستنكار شديد لأن تزني الحرة، وكذلك الكذب والظلم، والغش، وأكل المال الحرام..... الخ، فأي كرامة للإنسان إذا فقد حريته، وأية حرية للإنسان إذا استجاب لشهواته وغرائزه، وأية إنسانية للإنسان إذا فقد حريته، وفقد كرامته؟.

وهكذا فمصطلح الحرية في الإسلام هو نقيض الحرية في المصطلح الليبرالي التي يرىٰ فيها الإسلام تنازلًا عن حرية الفرد إلىٰ رق الشهوات، وتبعية الغرائز.

أما حرية الاعتقاد: فالإسلام يؤكد علىٰ حرية الإنسان في اختيار الاعتقاد الذي يراه فلا إكراه في الدين.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[2]، والواقع التاريخي يثبت أنه علىٰ توالي القرون في تاريخ الإسلام لم يحدث أن أكره المسلمون غيرهم علىٰ اعتناق الإسلام، وهذا ما يشهد به السير «توماس أرنولد» في كتابه (الدعوة إلىٰ الإسلام) حيث يقول: لم نسمع عن أي محاولة لإرغام الطوائف من غير المسلمين علىٰ قبول

---

(١) سورة الممتحنة: آية/ ١٢.

(٢) سورة البقرة: آية/ ٢٥٦.

الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين[1]، (كما حدث في محاكم التفتيش في الأندلس بنهاية القرن الخامس عشر الميلادي من قبل الكنيسة النصرانية تجاه المسلمين واليهود).

وإذا كان الإسلام لم يكره أحدًا علىٰ الدخول فيه، فإنه لما كان يرىٰ أن الانتقال من الكفر إلىٰ الإيمان هو انتقال من الظلمات إلىٰ النور، فإنه لا يرتضي للمسلم الردة والعودة إلىٰ ما كان عليه قبل إيمانه، وذلك حرصًا عليه في الدنيا ونجاةً له من النار في الآخرة، ومن هنا جاء الوعيد الشديد لمن يسمون بالمرتدين.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾[2]. ولهذا كانت العقوبة قاسية بشأن من يخرج من دين الإسلام بعد دخوله فيه راضيًا، وفيه يقول رسول الله ﷺ: (من بدل دينه فاقتلوه)[3] عسىٰ أن تكون عقوبته في الدنيا تكفيرًا له عن عذاب الآخرة، وردعًا لغيره من الوقوع في الكفر بعد الإيمان.

(١) مجلة (قراءات سياسية) السنة / ٤ عدد ٣، ص/ ٩ عن الديمقراطية في ميزان العقل والشرع ص/ ٢٧٩.

(٢) سورة البقرة: آية/ ٢١٧.

(٣) رواه البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في استتابة المرتدين، باب حكم المرتد، وفي باب الجهاد باب لا يعذب بعذاب الله.

الخلاصة

من الصعب وضع تعريف محدد لليبرالية، إلا أن الليبراليين لا يختلفون علىٰ جوهرها، وأنها مذهب فكري يعتمد النزعة الفردية أساسًا، والحرية جوهرًا، وهي تهدف إلىٰ إطلاق العنان للناس ليحققوا مصالحهم بالطرق التي يرونها من غير معارضة خارجية دينية كانت، أو سياسية، أو اجتماعية، وهي مفاهيم مستوحاه من الثقافة الأوروبية بجذورها الوثنية الرومانية، والدينية المحرفة.

فالفردية كانت معروفة في الفلسفة اليونانية القديمة، والتي تعتبر إحدىٰ الأسس الرئيسة في الفكر الغربي، إضافة إلىٰ حركة الإصلاح الديني (البروتستانتية) أوائل القرن السادس عشر، والتي دعت إلىٰ الانعتاق والتحرر من سلطة الكنيسة الكاثوليكية وجهالاتها.

وأما مجالات الليبرالية فتتعدد بحسب النشاط البشري بما يحقق إرادة الفرد وحريته في شتىٰ المجالات؛ فكرية أو دينية، أو اجتماعية، أو سياسية، أو اقتصادية... الخ.

وإن الأزمة المالية أو الاقتصادية التي يعيشها العالم اليوم هي نتيجة طبيعية لما أطلق عليه «الرأسمالية المتوحشة» وهي إحدىٰ مخرجات الليبرالية الاقتصادية التي همشت دور الحكومات، وبالغت في إطلاق حرية الفرد، وما ترتب علىٰ ذلك من عمليات ربا، وبيوع محرمة، وخداع وتضليل، وفساد إداري.

وتقوم الليبرالية المعاصرة علىٰ أساسين: الحرية والعقلانية، أما الحرية في النسق الليبرالي فهي مطلقة من كل قيد سوىٰ عدم الإضرار بالآخرين تم تطورت في مراحلها

المتأخرة حتىٰ أصبحت تعني حرية الفرد المالك، أو الإنسان الاقتصادي، أما العقلانية فهي مرتبطة بمبدأ النسبية في شتىٰ الميادين العلمية والإنسانية وقد استخدم هذا الأساس في التعامل مع أصول الإسلام ونصوص القرآن والسنة استخدامًا أفرغها من مضامينها بإنكار دلالتها المطلقة علىٰ معنىً محدد، ومن ثم فقد صار العقل البشري هو الذي يعطي النص معناه، ودلالته المحددة، وفق شروط الزمان والمكان، وحال كل متعامل مع النصوص.

وقد تأثر الليبراليون العرب بالخطاب الليبرالي في وقت مبكر، ومنذ حملة نابليون بونابرت علىٰ مصر عام ١٧٩٨م.

إلا أن من الإنصاف أن يفرق بين تيارات عدة تأثرت علىٰ نحو مختلف لطروحات الليبرالية الغربية تبعًا لاختلاف الزمان، والظروف الدولية، وما سادها من تطورات فكرية وسياسية وعسكرية، عبر مراحل متعددة.

أما موقف الإسلام من الليبرالية، فالإسلام جاء لتخفيف حدة الأنانية، وتقوية الجانب الاجتماعي لدىٰ الفرد، أما الحرية بمعنىٰ إطلاق العنان للشهوات والملذات والأهواء فلا تنسجم مع مقاصد الشريعة، وأحكامها المقررة.

أما الحرية الحقيقية في الإسلام فهي حرية الإرادة في إطار المباحات (والأصل في الأشياء الإباحة) دون الأشياء التي جاء النص بتحريمها صراحة أو إيجابها، كما تعني التحرر من الخضوع والذل والاستبعاد لغير الله عَزَّوَجَلَّ، وعلىٰ هذا فإن الحرية في المنظور الليبرالي يختلف مع مفهوم الحرية في التشريع الرباني اختلافًا بينًا.

مراجع مختارة

١- دراسة مقارنة في أصول وثوابت الثقافة الليبرالية، موسىٰ الأسيوطي مكتبة النهضة المصرية ط بدون القاهرة.

٢- عن الديمقراطية الليبرالية قضايا ومشاكل د. حازم الببلاوي القاهرة دار الشروق عام ١٩٩٣م.

٣- العولمة النيوليبرالية وخيار المستقبل د. حسين عبد الهادي ط ١ ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، مركز الراية للتنمية الفكرية جدة.

٤- الليبرالية إشكالية مفهوم د. ياسر قنصوه ط بدون دار قباء، القاهرة ٢٠٠٤م.

٥- معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية د. عبد العزيز مصطفىٰ كامل ضمن سلسلة تصدر عن مجلة البيان، بدون تاريخ.

٦- نقد الليبرالية د. الطيب بو عزة ط ١ ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م، كتاب البيان - مجلة البيان ١٤٣٠ هـ.

الفصل السابع:
العقلانية

المبحث الأول:
التعريف بالعقلانية والعقلانيين

«العقلانية مذهب فكري يزعم أنه يمكن الوصول إلى معرفة طبيعة الكون والوجود عن طريق الاستدلال العقلي بدون الاستناد إلى الوحي الإلهي أو التجربة البشرية، وكذلك يرى إخضاع كل شيء في الوجود للعقل لإثباته أو نفيه أو تحديد خصائصه»[١]، وهي لا تعني استخدام العقل، وإنما تعني الاعتماد على العقل في تحصيل المعارف كلها[٢]، مع استبعاد كل ما سواه من مصادر المعرفة، ولذا يقول عالم الاجتماع الفرنسي المعاصر إدغار موران: «العقلانية هي رؤية للعالم تؤكد على الاتفاق الكلي بين ما هو عقلي (التناسق) وواقع الكون، فهي إذن تقصي من الواقع كل ما ليس عقليًا، وكل ما ليس ذا طابع عقلي»[٣].

والمذهب العقلي بهذا المعنى مقابل للمذهب التجريبي الذي يزعم أن كل ما في العقل فهو متولد من الحس والتجربة، وهو أيضًا مضاد لمذهب الإيمانيين الذين يعتقدون أن العقل لا يكشف عن الحقيقة، وإنما يكشف عنها الوحي[٤]، يقول جوليان باجيني: «يعتقد أصحاب المذهب العقلي أن الطريقة للحصول على المعرفة هي بالتعويل على موارد المنطق والعقل، وهذا النوع من التفكير لا يعتمد على معطيات الخبرة، بل ينطلق من الحقائق الأساسية التي يطلب أن تكون موجودة، وليست نابعة من الخبرة»[٥].

فالعقلانية عندهم بديل للدين، يقول المؤرخ الأمريكي كرين برينتون: «تعتبر النزعة العقلانية -

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢/ ٧٩٦).

(٢) انظر: دراسات في المذاهب الفكرية المعاصرة. د. خالد السيف (ص: ٥٤).

(٣) العقل والعقلانية، إعداد وترجمة: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي (ص: ٧).

(٤) انظر: موسوعة لالاند (٣/ ١١٧٢)، المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا (٢/ ٩٠-٩١).

(٥) الفلسفة موضوعات مفتاحية، جوليان باجيني (ص: ٣٠)، ترجمة: أديب يوسف شيش.

بالصورة التي نمت بها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في الغرب- نسقًا ميتافيزيقيا كاملًا، بل وأكثر من هذا، إنها كانت وما زالت بالنسبة لقليل من الناس بمثابة البديل للدين»[١]، والدين عندهم أيضًا يخضع لحكم العقل قبولا وردًّا، يقول المفكر الأمريكي جون هرمان: «إن الدين ليس حاجة غريزية ونتيجة فعل في النفس البشرية، وإنما هو علم في الأساس كعلم الفيزياء، أي: إنه نظام من القضايا العقلية أعطي لنا من الخارج لامتحانه كما تمتحن أية قضايا أخرى ببراهين العقل الإنساني»[٢].

وقد ظهر هذا المصطلح بهذا المعنى في القرن السابع عشر الميلادي[٣].

أما المقصود بالعقلانيين فإن هذا المصطلح قد استعمل في أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر للدلالة على المفكرين الأحرار الذين أوقفوا تفكيرهم وعلومهم لمحاربة الإكليروس[٤] والدين النصراني[٥].

---

(١) تشكيل العقل الحديث، كرين برينتون (ص: ٧٢)، ترجمة: شوقي جلال.

(٢) تكوين العقل الحديث، جون هرمان راندل (١/ ٤١٩)، ترجمة: د. جروج طعمه.

(٣) موسوعة لالاند الفلسفية (٣/ ١١٧٢).

(٤) إكليروس كلمة يونانية المقصود بها أصحاب الرتب الكهنوتية من أساقفة وكهنة وشمامسة. انظر: موقع الأنبا تكلا هيمانوت، على هذا الرابط: https://cutt.us/yvPly، بتاريخ: ٢٩/ ٧/ ٢٠١٢م.

(٥) انظر: العقلانية المعاصرة عند روبير بلانشي، علي بوقليع (ص: ج)، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر.

المبحث الثاني:
المقصود بعصر التنوير، والتنويريين، والعصرانيين

المقصود بعصر التنوير:

يقصد بعصر التنوير: الحركة الفلسفية التي بدأت في أوربا في القرن الثامن عشر الميلادي[١].

وقد ارتبطت هذه الحركة بإعلاء شأن العقل، واعتباره الميزان الوحيد للحكم على الأشياء حتى لو تعارض مع ما تعارف الناس على اعتباره من المقدسات[٢].

يقول د. محمد البهي: «للعقل -في نظر أصحاب عصر التنوير- الحق في الإشراف على كل اتجاهات الحياة، وما فيها من سياسة وقانون ودين، والإنسانية هي هدف الحياة للجميع، وليس الله أو المجتمع الخاص أو الدولة الخاصة ... فالتنوير لا يقصد به إلا إبعاد الدين عن مجال التوجيه وإحلال العقل محله فيه، والإنسانية التي يبشر بها هذا العصر ليست إلا عوضًا عن القرب من الله كهدف للإنسان في سلوكه في الحياة، والإله الذي ليس له وحي ولا خلق يتفق مع تحكيم العقل وحده، وطلب سيادته على أحداث الحياة واتجاهاتها، وكانت في عصر التنوير إذن خصومة فكرية بين الدين والعقل، واتجه التفكير فيه إلى إخضاع الدين العقل؛ ولذلك عُدَّ زمن هذا العصر فترة سيادة العقل، كما عُدَّ العصر السابق عليه فترة سيادة الدين»[٣].

المقصود بالتنويريين:

يقصد بالتنويريين في أوروبا الفلاسفة الذين قادوا حركة التنوير للخلاص من ظلمات دين بولس واستبداد الكنيسة ففي إنجلترا: جون تولاند، ودافيد هيوم، وفي فرنسا: مونتسكيو، وفولتير، ودولباخ[٤].

ويقصد بالتنويريين في الفكر العربي الحديث: الفئة التي تعتمد العقل في فهم الدين أكثر من

---

(١) انظر: المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية (ص: ١٣٩).

(٢) قضايا التنوير والنهضة في الفكر العربي المعاصر. مجموعة باحثين (ص: ٧٠).

(٣) الفكر الإسلامي الحديث (ص: ٢٩٨-٢٩٩).

(٤) انظر: مصطلح التنوير (ص: ٣).

اعتمادها على الوحي(١).

وهو نفس الاتجاه الكلامي الذي وجد مع ظهور الفرق الكلامية التي تعتمد على العقل عوضا عن النقل كالجهمية والمعتزلة، إلا أن هؤلاء أضافوا إلى ذلك إخضاع نصوص الوحي إلى مفاهيم الغرب وقيمه وتصوراته، ومن هنا أصبح يطلق مصطلح التنوير في الخطاب العربي الحديث بشكل عام على الحركة التي حدثت في العالم الإسلامي منذ قرنين من الزمان، واتسمت بتأثرها بالطريقة الغربية، وبإعجابها بالغرب وعلومه وتقدمه الفكري والعلمي، وبتيار النهضة والإحياء الذي عرف في القرون الأخيرة(٢).

المقصود بالعصرانيين:

نسبة إلى العصرانية، وهي «الحركة التي سعت إلى تطويع مبادئ الدين لتتلاءم مع قيم الحضارة الغربية ومفاهيمها، وإخضاعه لتصوراتها ووجهة نظرها في شؤون الحياة»(٣).

«ويطلق المصطلح بخاصة على: حركة في الفكر الكاثوليكي سعت إلى تأويل تعاليم الكنيسة على ضوء المفاهيم الفلسفية والعلمية السائدة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وقد اشتد ساعد هذه الحركة في فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وألمانيا.

ويطلق المصطلح أيضا على: حركة تحررية في الكنيسة البروتستانتية، نشأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولا تزال ناشطة حتى اليوم، وهي تهدف إلى التوفيق بين المفاهيم اللاهوتية ومقتضيات المعرفة الحديثة»(٤).

وقد أطلق هذا المصطلح في العالم الإسلامي على طائفة تلقت تعليمها -في الغالب- في بلاد الغرب، وحاولت تأويل نصوص القرآن والسنة حتى تتلائم مع منهج الغرب وعلومه وقيمه.

ومن أبرز دعاة العصرانية في العالم الإسلامي:

---

(١) انظر: المثقفون في الحضارة العربية، د. محمد عابد الجابري (ص: ١١٤).

(٢) مصطلح التنوير (ص: ٨).

(٣) مفهوم تجديد الدين، د. بسطامي محمد سعيد (ص: ٩٨).

(٤) موسوعة المورد، منير البعلبكي (٧/ ٤٤). نقلا عن: العصرانيون.. حقيقة التجديد عند العصرانيين. د. حمزة أبو الفتح قاسم، بحث منشور على موقع: رابطة العلماء السوريين. على هذا الرابط: https://islamsyria.com/site/show_articles/٤٥٦

سيد أحمد خان: حيث كان أول رجل في الهند الحديثة سعى إلى طرح آرائه التي يرى فيها ضرورة إيجاد تفسير جديد للإسلام يقوم على الحداثة والتقدم والتحرر، وأنشأ مدرسته الفكرية القائمة على أساس تقليد الحضارة الغربية وأسسها المادية، واقتباس العلوم العصرية بحذافيرها، وعلى علاتها، وتفسير الإسلام والقرآن تفسيرًا يطابقان ما وصلت إليه المدنية والمعلومات الحديثة في آخر القرن التاسع عشر(١).

وكان من تلاميذه الذين تأثروا بنظرياته وحملوا فكرته في القارة الهندية: شراغ علي في كتابه: الإصلاحات السياسية والقانونية والاجتماعية المقترحة للإمبراطورية العثمانية والدول الإسلامية الأخرى، وسيد أمير علي من طائفة الشيعة في كتابه: روح الإسلام، ومحمد علي من طائفة القاديانية(٢) في كتابه: الدين الإسلامي، غلام أحمد برويز من منكري السنة في كتابه: الإسلام، وممن تأثر بالفكر التجديدي الغربي أيضا: محمد إقبال في كتابه: تجديد الفكر الديني في الإسلام.

---

(١) انظر: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار العربية، أبو الحسن الندوي (ص: ٨٢).

(٢) هم أتباع المتنبي الكذاب غلام أحمد القادياني الذي ادعى النبوة.

المبحث الثالث:

الجذور الفكرية والعقدية للعقلانيين

ترجع جذور هذا المذهب إلى عصر الفلسفة اليونانية، «وقد بدأت كتيار وكمنهج فلسفي في الفلسفة اليونانية مع سقراط وأفلاطون»[١]، فقد «كانت العقلانية اليونانية لونًا من عبادة العقل وتأليهه، وإعطائه حجمًا أكبر بكثير من حقيقته»[٢].

وقد برزت العقلانية في الفلسفة الحديثة والمعاصرة على أيدي كثير من الفلاسفة الذين أثَّروا كثيرًا في الفكر البشري من أمثال: رينيه ديكارت الذي يعده الكثيرون أبا للعقلانية الحديثة[٣]؛ لأنه اعتمد المنهج العقلي لإثبات الوجود عامة ووجود الله على وجه أخص، وذلك من مقدمة واحدة عُدت من الناحية العقلية غير قابلة للشك وهي: أنا أفكر فأنا إذن موجود.

ومن أمثال ليبنتز الذي قال بأن كل موجود حي، وليس بين الموجودات مِنْ تفاوت في الحياة إلا بالدرجة -درجة تميز الإدراك- والدرجات أربع: مطلق الحي أي: ما يسمى جمادًا، والنبات، فالحيوان، فالإنسان.

وفي المجتمع الإسلامي نجد المعتزلة تقترب من العقلانية جزئيًا، إذ اعتمدوا على العقل، وجعلوه أساس تفكيرهم، ودفعهم هذا المنهج إلى تأويل النصوص من الكتاب والسنة التي تخالف رأيهم[٤].

---

(١) العقلانية المعاصرة، علي بوقليع (ص: ب).

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢/ ٧٩٧).

(٣) انظر: العقلانية المعاصرة، علي بوقليع (ص: ب).

(٤) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٧٩٦).

المبحث الرابع:
المدرسة العقلية الحديثة
تعريفها، ونشأتها، ومعالمها، وآثارها

تعريفها:

«المدرسة العقلية اسم يطلق على ذلك التوجه الفكري الذي يسعى إلى التوفيق بين نصوص الشرع وبين الحضارة الغربية والفكر الغربي المعاصر، وذلك بتطويع النصوص وتأويلها تأويلًا جديدًا يتلاءم مع المفاهيم المستقرة لدى الغربيين»(١).

نشأتها:

بدأت جذور المدرسة العقلية في الظهور نتيجة الاختلاط بين الشرق والغرب عن طريق البعثات التعلمية، حيث تأثر تلامذة البعثات من أمثال رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي بما وجدوه في أوروبا من تقدم مادي، ولما رجعوا إلى بلادهم أخذوا ينادون بالنهوض بالأمة الإسلامية، وأن السبيل إلى تحقيق ذلك هو اللحاق بركب الحضارة الغربية(٢).

وقد نشأت المدرسة العقلية الحديثة في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي على يد جمال الدين الأفغاني (ت١٨٩٧م) في مصر، وأحمد خان (ت١٨٩٨م) في الهند، وكان سبب نشأتها محاولة النهوض بالعالم الإسلامي من التخلف العلمي والمادي، في ظل الانبهار بالحضارة الغربية المادية، وكان التجديد والإصلاح في نظرهم يتمثل في الموائمة والتوفيق بين نصوص الشرع ومعطيات الحضارة الغربية، وذلك بتأويل النصوص تأويلًا لا يعارض المفاهيم والنظريات الغربية السائدة، مع إعطاء العقل المنزلة الأولى في التعامل مع النصوص الشرعية من حيث القبول والرد، ومن حيث الفهم والتنزيل على الواقع(٣).

---

(١) المدرسة العقلية الحديثة وموقفها من الحديث الشريف. نجمية أردول (ص: ١١).

(٢) انظر: المعتزلة بين القديم والحديث. محمد العبده. طارق عبد الحليم (ص: ١٢٧).

(٣) انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير. د. فهد الرومي (١/ ٧٠)، التجديد في الفكر الإسلامي، د.عدنان محمد أمامة (ص: ٣٦٤).

معالمها:

١- تقديم العقل على النصوص الشرعية، بل ومحاكمة النصوص إلى العقل، يقول أحدهم: «الإسلام الجديد تعبير صريح عن تقديم العقل على النص، بل واستخدام منتجات العقل الإنساني في دراسة الظاهرة الدينية ومنتجاتها الرمزية والمادية... إن أهم ما يميز الفكر الحديث هو نزع التعالي عن النصوص الدينية وإخضاعها لسنن القراءة، شأنها في ذلك شأن بقية النصوص»[١].

٢- الجهل بالعقيدة دراسة غالبهم في مدارس أجنبية، واهتمامهم بدراسة عقائد الفرق المنحرفة، حتى قال بعضهم[٢]: إن «العقيدة أتت لتبرير اختلاف المواقف السياسية، مما يدل على أن علم أصول الدين هو علم سياسي، وأن مشاكله كلها أتت كصدى للمشاكل السياسية، وأن الفرق الكلامية هي في حقيقة الأمر فرق سياسية تأخذ العقيدة كسلاح أيديولوجي في مجتمع تحركه العقيدة»[٣]، ويقول أيضًا في الإسراء والمعراج: «لم يظهر هذا الموضوع كجزء من العقائد إلا في العقائد المتأخرة في مرحلة انحسار العقل وزيادة النقل ... وهي مادة مستمدة أحيانا من علوم السيرة وأحيانا أخرى من الخيال الشعبي والمصنفات فيه»[٤]، وهو جهل فاضح؛ فالعقيدة الإسلامية مستمدة من القرآن والسنة، والإسراء والمعراج معجزة نبوية عظيمة، ولكنه الجهل يعمي ويصم.

٣- معارضة النصوص الشرعية ولا سيما السنة النبوية، إما بإنكار حجيتها، أو عدم قبول ما سوى المتواتر منها، أو تأويلها بمقتضى عقولهم وأهوائهم وخلفياتهم العلمية، يقول أحدهم في الطعن في نقلة الشريعة: «نحن نجد أن جيل الصحابة هو وحده الذي رأى وسمع وشهد الظروف الأولى والكلمات الأولى التي نقلت فيما بعد على هيئة القرآن والحديث والسيرة، إن لمن الصعب تاريخيًا إن لم يكن من المستحيل التأكيد على القول بأن كل ناقل قد سمع بالفعل ورأى الشيء الذي نقله، على الرغم من هذه الحقيقة، فالنظرية الثيولوجية المزعومة قد فرضت بالقوة فكرة إن كل الصحابة معصومون في شهاداتهم ورواياتهم»[٥]، ويقول آخر في الطعن في حفظ السنة

(١) إسلام المجددين، محمد حمزة (ص: ٤٧).
(٢) هو د. حسن حنفي.
(٣) موسوعة الحضارة الإسلامية، حسن حنفي (٢/ ٤١).
(٤) من العقيدة إلى الثورة، د. حسن حنفي (٤/ ٢٠٥).
(٥) الفكر الإسلامي قراءة علمية، محمد أركون (ص: ١٧٤).

النبوية: «إن السبب الأساسي لجمع الحديث أولا وللتأكيد عليه ثانيا هو سبب سياسي بحت، تولد عنه منطلق فكري عقائدي بعد سقوط دولة الخلفاء الراشدين وظهور الدولة الأموية»[١].

٤- رد جملة من الأحكام الشرعية بدعوى أنها أحكام مرحلية، يقول أحدهم: «علينا اعتبار كل الأحاديث المتعلقة بالحلال والحرام والحدود التي لم يرد نص فيها في الكتاب على أنها أحاديث مرحلية مثل الغناء والموسيقى والتصوير. واعتبارها أحاديث قيلت في حينها حسب الظروف السائدة»[٢].

٥- الطعن في الثوابت والأصول الشرعية، يقول أحدهم: «الفقه الإسلامي كما صاغه لنا الفقهاء في القرنين الثاني والثالث الهجريين وكذلك علوم القرآن بحاجة ملحة إلى إعادة النظر وخاصة فيما يسمى بالثوابت أو الأصول؛ حيث نحن اليوم بحاجة ماسة إلى إعادة تأصيل الأصول نفسها، وإعادة النظر فيما يسمى بالأحكام الشرعية وأدلتها، والتفكير بصياغة شرعية جديدة بعد شرعية الخلافة»[٣].

٦- الأخذ بالمناهج الغربية خصوصًا مناهج المستشرقين، حيث يسعى أصحاب هذه المدرسة إلى تقليد نظام الحياة الغربية، والمنهج الاستشراقي على وجه أخص، وهم يرون أن الدراسات الاستشراقية التزمت بأدوات منهجية جديدة لا عهد للفكر الإسلامي بها[٤].

٧- عدم الالتزام بالضوابط الشرعية، والدعوة إلى حرية مطلقة[٥].

٨- التلاعب بمعاني النصوص الشرعية، وادعاء أنها تقبل جميع القراءات، وتخضع لجميع مناهج التأويل[٦].

٩- نقد العلوم الشرعية؛ حيث يسعى أتباع هذه المدرسة إلى نقد العلوم الشرعية وعدم التسليم بقواعد هذه العلوم وتحريف معانيها[٧].

١٠- الدعوة إلى حرية الاعتقاد، يقول أحدهم: «الإسلام يدعو إلى حرية الفكر والعقيدة إلى

---

(١) الكتاب والقرآن، محمد شحرور (ص: ٥٦٦).
(٢) الكتاب والقرآن، محمد شحرور (ص: ٥٧٢).
(٣) تجفيف منابع الإرهاب، محمد شحرور (ص: ٣٠٤).
(٤) انظر: موقف المدرسة العقلية المعاصرة من علوم القرآن وأصول التفسير. د. محمود البعداني (١/ ١١١).
(٥) انظر: موقف المدرسة العقلية المعاصرة من علوم القرآن وأصول التفسير (١/ ١١٢).
(٦) انظر: المصدر السابق (١/ ١١٣).
(٧) انظر: المصدر السابق (١/ ١١٥).

آخر مدى، وسيكون دليلنا على هذا نصوص القرآن والكريم وسنة الرسول -عليه الصلاة والسلام- وعمل الصحابة، أما الفقهاء فليس لنا معهم كلام»(١).

آثارها:

ترك أصحاب ما يسمى بالمدرسة العقلية كثيرًا من الآثار السيئة في المجتمعات الإسلامية(٢)، ومن أخطرها ما يلي:

١- إنشاء مؤسسات لنشر آرائهم وأفكارهم، وتشكيل ثقافة كثير من المجتمعات وفق أهدافهم، ومن أمثلتها: مؤسسة ابن رشد للفكر الحر في ألمانيا، ومركز دراسات الوحدة العربية في لبنان.

٢- تسخير كثير من وسائل الإعلام المختلفة من قنوات فضائية ومجلات بحثية ومواقع إلكترونية لترويج آرائهم وثقافتهم، ومن أمثلتها: مجلة التسامح، ومجلة منبر ابن رشد للفكر الحر التابعة لمؤسسة ابن رشد، وموقع تنوير، وموقع أوان، ومنتدى العقلانيين العرب.

٣- التدريس في عدد كبير من الجامعات مما ساعد على ترسيخ أفكارهم ومبادئهم في جيل الشباب.

٤- إقامة ندوات ومؤتمرات لبث مفاهيمهم(٣).

---

(١) حرية الفكر والاعتقاد في الإسلام، جمال البنا (ص: ٤).

(٢) لأصحاب هذه المدرسة مؤلفات كثيرة في عدد من أبواب العلوم والمعارف يتعذر إحصاؤها، فهم يكتبون في العلوم الشرعية، وفي اللغة والأدب الحديث، والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مع عنايتهم بترجمة الكتب الغربية.

فعلى سبيل المثال بلغت كتب نصر حامد أبو زيد كما جاء في موقعه اثنان وعشرون كتابا وإحدى وثلاثون مقالة. وقد ترجم كثير منها إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإندونيسية وغيرها.

وأما كتب محمد عابد الجابري في موقعه فهي اثنان وثلاثون كتابا، ومقالاته تتجاوز مئتي مقالة.

وكتب حسن حنفي تتجاوز عشرين مجلدا.

وكتب جمال البنا تجاوزت مئة كتاب. انظر: موقف المدرسة العقلية من علوم القرآن وأصول التفسير (١/ ٩٣) الهامش.

(٣) انظر: موقف المدرسة العقلية من علوم القرآن وأصول التفسير (١/ ١٢١-١٣٤).

ملخص الفصل السابع

- **تعريف العقلانية:** هي مذهب فكري يزعم أنه يمكن الوصول إلى معرفة طبيعة الكون والوجود عن طريق الاستدلال العقلي بدون الاستناد إلى الوحي الإلهي أو التجربة البشرية
- **نشأتها:** ظهر هذا المصطلح بهذا المعنى في القرن السابع عشر الميلادي، وقد استعمل هذا المصطلح في أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر للدلالة على المفكرين الأحرار الذين أوقفوا تفكيرهم وعلومهم لمحاربة الإكليروس والدين النصراني.
- **تعريف عصر التنوير:** الحركة الفلسفية التي بدأت في أوربا في القرن الثامن عشر الميلادي، وقد ارتبطت هذه الحركة بإعلاء شأن العقل، واعتباره الميزان الوحيد للحكم على الأشياء حتى لو تعارض مع ما تعارف الناس على اعتباره من المقدسات
- **تعريف التنويريين:** يقصد بالتنويريين في أوروبا الفلاسفة الذين قادوا حركة التنوير للخلاص من ظلمات دين بولس واستبداد الكنيسة، ويقصد بالتنويريين في الفكر العربي الحديث: الفئة التي تعتمد العقل في فهم الدين أكثر من اعتمادها على الوحي.
- **تعريف العصرانية:** هي الحركة التي سعت إلى تطويع مبادئ الدين لتتلاءم مع قيم الحضارة الغربية ومفاهيمها، وإخضاعه لتصوراتها ووجهة نظرها في شؤون الحياة.
- **نشأة العقلانية:** ترجع جذور العقلانية إلى عصر الفلسفة اليونانية، وقد بدأت كتيار وكمنهج فلسفي في الفلسفة اليونانية مع سقراط وأفلاطون. وقد برزت العقلانية في الفلسفة الحديثة والمعاصرة على أيدي كثير من الفلاسفة الذين أثَّروا كثيرًا في الفكر البشري من أمثال: رينيه ديكارت الذي يعده الكثيرون أبا للعقلانية الحديثة.
- **تعريف المدرسة العقلية:** هي اسم يطلق على ذلك التوجه الفكري الذي يسعى إلى التوفيق بين نصوص الشرع وبين الحضارة الغربية والفكر الغربي المعاصر، وذلك بتطويع النصوص وتأويلها تأويلًا جديدًا يتلاءم مع المفاهيم المستقرة لدى الغربيين.
- **نشأة المدرسة العقلية:** بدأت جذورها في الظهور نتيجة الاختلاط بين الشرق والغرب عن طريق البعثات التعلمية وغيرها، وقد نشأت المدرسة العقلية الحديثة في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي على يد جمال الدين الأفغاني (ت١٨٩٧م) في مصر، وأحمد خان (ت١٨٩٨م) في الهند، وترسخت على يد محمد عبده (ت١٩٠٥م) وتلامذته

من بعده.

- **أهم معالمها:** (١) تقديم العقل على النصوص الشرعية، بل ومحاكمة النصوص إلى العقل. (٢) الجهل بالعقيدة بحكم دراسة غالبهم في مدارس أجنبية. (٣) معارضة النصوص الشرعية ولا سيما السنة النبوية، إما بإنكار حجيتها، أو عدم قبول ما سوى المتواتر منها، أو تأويلها بمقتضى عقولهم وأهوائهم وخلفياتهم العلمية. (٤) رد جملة من الأحكام الشرعية بدعوى أنها أحكام مرحلية. (٥) الطعن في الثوابت والأصول الشرعية. (٦) الأخذ بالمناهج الغربية خصوصًا مناهج المستشرقين. (٧) عدم الالتزام بالضوابط الشرعية، والدعوة إلى حرية مطلقة. (٨) التلاعب بمعاني النصوص الشرعية، وادعاء أنها تقبل جميع القراءات، وتخضع لجميع مناهج التأويل. (٩) نقد العلوم الشرعية، وعدم التسليم بقواعدها وتحريف معانيها. (١٠) الدعوة إلى حرية الاعتقاد.
- ترك أصحاب ما يسمى بالمدرسة العقلية كثيرًا من الآثار السيئة في المجتمعات الإسلامية، ومن أخطرها ما يلي: (١) إنشاء مؤسسات لنشر آرائهم وأفكارهم، وتشكيل ثقافة كثير من المجتمعات وفق أهدافهم. (٢) تسخير كثير من وسائل الإعلام المختلفة من قنوات فضائية ومجلات بحثية ومواقع إلكترونية لترويج آرائهم وثقافتهم. (٣) التدريس في عدد كبير من الجامعات مما ساعد على ترسيخ أفكارهم ومبادئهم في جيل الشباب. (٤) إقامة ندوات ومؤتمرات لبث مفاهيمهم.

أسئلة تطبيقية

س١: ما المراد بالعقلانية؟ ومتى نشأت؟

س٢: بين المراد بالمصطلحات التالية: عصر التنوير، العصرانية، التنويريون، المدرسة العقلية الحديثة؟

س٣: بين بإيجاز أهم معالم المدرسة العقلية الحديثة التي ظهرت في العالم الإسلامي.